fb.com/ahlaa3pdf

مجموعة قصصية

قصاصات

عادل عصمت

الهيئة المصرية العامة للكتاب

قصاصات

fb/mashro3pdf

عصمت، عادل.
قصاصات: مجموعة قصصية/ عادل عصمت.
- القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥.
١٧٦ص: ١٩,٥ سم.
تدمك ١ ٠٢٢٥ ٩١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - القصص العربية القصيرة.
أ - العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٥٦٩١/ ٢٠١٥
I. S. B. N 978 - 977- 91 - 0235 - 1
ديوى ٨١٢,٠١

fb/mashro3pdf

قصاصات

مجموعة قصصية

عادل عصمت

fb/mashro3pdf

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٥

رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد مجاهد

رئيس التحرير
شعبان يوسف

مدير التحرير
هدى توفيق

سكرتير التحرير
سلوى مصطفى

تصميم الغلاف
أحمد اللباد

الإخراج الفنى
مادلين أيوب

التصحيح اللغوى
طلعت الجندى

طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www.gebo.gov.eg
E-mail: info@gebo.gov.eg

fb/mashro3pdf

إهداء

إلى أسرتى

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

صورتى

تنعكس صورتى على شاشة الكمبيوتر المظلمة، أحرك الفارة تسترد الشاشة ضياءها، وتبدد الصورة. من هذا الشخص الذى يظهر على صفحة الشاشة، خلفه خليط من عالم صاخب من الكلمات والصور؟ عادت الشاشة مرة أخرى لتظلم بعدما تركتها بضع دقائق. ظهرت صورتى الغريبة مرة أخرى، تأملتها هذه المرة بجدية. كان الوجه مغايرا لذلك الوجه الذى أطالعه فى الصباح عندما أحلق ذقنى، ذلك الموظف المتعجل الذى يراقب بحس داخلى مواعيد الحضور والانصراف، ومغايراً لذلك الشبح الذى أندهش لرؤيته مارقًا فى فاترينات المحلات عندما أمضى مسرعًا فى المشاوير اليومية، كان الوجه المطل من الشاشة المظلمة ساكنًا مرهقًا مستندًا برأسه على حافة المقعد. تعكس المرايا أشباحًا متناثرة لما نظنه ذاتًا واحدة. الصورة الباهتة المغمورة بظلام

fb/mashro3pdf

الشاشة هى أقرب أشباحى إلى نفسى، لأنها تعكس الروح التى تحاول أن تتجسد فى كيان هش مثلها: كلمات.

* * *

fb/mashro3pdf

الحرب

فصل أولى خامس فى مدرسة سعيد العريان الإعدادية، يطل على حديقة واسعة فيها نخل أفرنجى وأشجار داكنة الخضرة طويلة مدببة الحواف. بين الحصص نتجمع فى النوافذ، ونتفرج على شباب وبنات المعهد العالى التجارى يتجولون فى الممرات مغمورين بضوء الشمس. كان ذلك الحلم على بُعد خطوات؛ لأن حسين ابن عمتى كان طالبا فى المعهد. فى البداية لم أصدقه، فلم يكن لذلك الحلم الملون نفس المناخ الذى يحيط بحسين وإخوته الذين جاءوا من بلدة أبى، يقيمون فى غرفة فى الطابق الأرضى من بيتنا. كان طابع حياتهم الريفى قد نُقل معهم، وهناك فى غرفتهم حيث يمر أبى بعد صلاة العشاء لكى يطمئن على أولاد أخته، أقف شاردًا أمام الباب، أتابع بتعجب السرير والكنبة، والمكتب الخشبى المقشر الطلاء، والنافذة التى تتراكم فيها أكواب الشاى والوابور، ويزداد شكى أن حسين يعيش فى الحلم

fb/mashro3pdf

الذى نراه من نافذة فصل أولى خامس. أقول لنفسى صاعدا خلف أبى، ربما يكون هناك، ربما يذهب إلى المحاضرات ويعود دون أن أراه. حتى جاء ذلك اليوم. رأيت فتاة بشعر بنى اللون يسيل على ظهرها، تقف بجوار السور. كانت المسافة قريبة حتى تأكدت أن من يقف مع الفتاة هو حسين ابن عمتى، يرتدى (بلوفر) مفتوح الصدر، ويحيط برأسه شعره الأكرت المهوش. ظل المشهد حيا كأنه تحقق حلم، وعندما رأيته يوم الجمعة بالبجامة الكستور، يقرأ واقفًا جريدة الأهرام وأمامه كوب شاى يتصاعد منه البخار، أخذ وجوده تجسدًا وحسًا آخر.

كان ذلك شتاء عام 1973 . فى الصيف سافر أبى إلى البلد وغاب هناك حتى المساء، وعاد مرهقًا وقال لأمى إن حسين دخل الجيش. بدا مهمومًا بسبب العبء الذى تحمله أخته؛ فهى تربى ثلاثة صبيان بعد أن مات زوجها. قال بعد أن صلى العشاء: "كان الله فى عونها".

فى الخريف تعطلت الدراسة، بسبب الحرب. سافر أبى إلى القاهرة فى مأمورية، ورحلنا إلى البلد. كانت زيارة البلد السنوية عيدًا بالنسبة لنا. هناك نقضى الوقت فى الجرن نلعب الكرة أو على شواطئ الترع نصطاد، أو نرافق العمال فى الفيطان. حياة خالية من المسئوليات الصغيرة مثل شراء الفول وإحضار التموين، وغيرها من المنغصات، التى تقطع

fb/mashro3pdf

لعبنا. ظننت أننا فى البلد سوف نبتعد عن سيرة الحرب. لكن فى قلب صخب البيت الكبير، كانت الحرب حاضرة، رغم أنها بدت بعيدة مجرد قصة تحدث فى مكان آخر، مثل مسلسل ألف ليلة الذى يتابعه عمى الكبير بعد الإفطار. كنت أظن أننا محصنين فى المكان الذى لا تعرفه المنغصات، لكن الحرب جاءت إلينا فى بلدة أبى.

كنت يومها أرافق عمال جمع القطن. ألعب عند الساقية بصنع كائنات من طين الترعة، عندما حدث هزيم مكتوم فى الفضاء ثم مرقت الطائرات، لامعة فضية ذات شرائط حمراء، وجاء صوتها صاخبًا بعد مرورها. ألقيت الطين من يدى ونظرت جهة عمال القطن. كانوا قد توقفوا عن الانحناء تجاه شجر القطن، ووضعوا أكفهم فوق عيونهم، يتابعون الطائرات. لحظة قصيرة صامتة فيها حيرة وقلق، ثم عادت الطائرات بقوة، أكثر قربًا، والصوت له ذبذبة، كأنه يمكن أن يطير الشجر. جريت باتجاه العمال، وسمعت أحدهم يقول إن الطائرات اكتشفت مصانع المحلة. ارتفع صخب مرور الطائرات حتى ملأ الفضاء ولم يعد هناك مكان لاحتوائه. لم أكن أظن أن ارتفاع الصوت مخيف إلى هذه الدرجة. خوف مباغت، لا يعرف المرء من أين يأتى. الأصوات أصبحت أكثر عدوانية، ثم حدث انفجار حطم الفضاء.

fb/mashro3pdf

تفرق العمال فى الأراضى. وصل بعضهم إلى الطريق، وطبش فى الترعة. صرخت البنات ونزعن الطرح من فوق الرءوس. فى تلك اللحظة تكتشف أن الأرض المكشوفة أو البيوت ذات الجدران لا تقدر على حمايتك، وتشعر بالخطورة التى يخبئها الفضاء منذ الأزمان القديمة عندما كان مصدر اللعنة التى يرسلها الله على من يغضب عليه من البشر. لم تتحمل البهائم الضجيج، فخلعت الأوتاد وراحت تجرى على الطرق. تكرر الانفجار وتجمع العمال، كأنما تجمعهم يمكن أن يحميهم، فلا يقدر المرء على تحمل الرعب وحده. ورغم أن منظر من خرج من الترعة مبلل الثياب كان مضحكًا فلم يثر غير الصمت. ولم يقطع التطلع المدقق فى السماء. انتشر صمت كثيف فى ترقب أن تبدأ المطاردة بين الطائرات مرة أخرى، فى أية لحظة. بعد قليل وبحس غريزى تأكدوا أن المعركة انتهت، وأشاروا تجاه الأجسام المعدنية التى أطاحت بشجر السنط عند فم الترعة. تركوا العمل. ورحلوا يستطلعون ما تساقط من السماء، بالقرب من جسر السكة الحديد.

فى ذلك اليوم لم يفطر الناس فى بيوتهم. انطلقوا على الطرقات يبحثون عن الأجسام المعدنية، وعادوا فى زفة بعد أن أظلمت الدنيا، يتحدثون عن المعركة الجوية، ويتجادلون فيما إذا كانت الكتابة الموجودة على الأجسام المعدنية بالعبرى

fb/mashro3pdf

أم بالروسى. قال أحدهم ساخرًا إما روسى أو عبرى ليست هناك كتابة بالعربى؛ لغة القرآن. لو حملت الطائرات الخط العربى لكان هناك أمل. الطائرات المكتوب عليها بلغة القرآن لا تسقط، إنها تحلق بأمر الله. قال الشيخ أبوخضرة مدرس الابتدائى ساخرًا: العربى لا يُكتب على الطائرات، إنه صوت الأرض على رأى الشيخ سيد مكاوى. وراحوا يستعيدون ماحدث ويناوشون مازحين من خفت قلوبهم وطبشوا فى الترعة كأن الترعة سوف تحميهم من الطائرات.

فى شتاء العام التالى لم يرجع حسين ابن عمتى مع من رجع من الحرب، وظلت عمتى حائرة حتى تأكدوا بعد شهور طويلة من موته فى إحدى المعارك. بدأت الدراسة، غير أن طرقات المعهد العالى التجارى، لم تبد على ذلك النحو من البهجة. كنت أتطلع إلى ساحة المعهد مندهشًا من أن البنات والشباب مازالوا يتمشون بنفس المرح الذى كانوا عليه قبل الحرب. أحيانًا تأخذنى الأوهام وأتخيل أنه يمكن أن أشاهد "حسين" مرة أخرى، بجانب السور. كل يوم يستبد هذا الوهم، ويعقبه سؤال لم أستطع حتى الآن أن أجيب عنه: إلى أين رحل حسين ابن عمتى؟

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

ارتعاش اليد

عاد من استجواب فى مباحث أمن الدولة. زيارة معتادة كما يسميها. هذه المرة كان صامتًا يدخن ويمد يده تجاه فنجان القهوة بتراخ. لم أره حزينًا على هذا النحو فى المرات السابقة. أخبرنى فى ذلك اليوم عن خطأ لا يغتفر. قال له الضابط: "افرد إيدك". كان يعرف أنه تعدى الخمسين. بعد الخمسين يبدأ ارتعاش اليد وضعف البصر. يبدأ الجسد رحلة الوهن استعدادًا للعودة إلى الصمت الذى جاء منه. فرد كفه بعصبية كأنه يريد أن يثبت للضابط أن أصابعه لا ترتعش. الآن يدرك الخطأ. قال: كان لا بد أن أقول له كف عن أساليبك الساذجة. طبيعى أن أفرد كفى أمامك وترتعش أصابعى. هذا طبيعى أن يحدث لشخص فى مثل عمرى، وحتى لو كنت فى العشرين وارتعشت لأنى خائف من التعذيب والسجن فلا علاقة لذلك بإرادتى. طبيعى أن يخاف المرء من جلاد.

fb/mashro3pdf

قال: كان يجب أن أقول له أكثر من ذلك. كان حزينًا لأنه دخل فى مبارزة مع جلاده، وانحدر إلى تلك الوضاعة، وأنه بتلك الطريقة كان يهزم الإنسان داخله. كان يحاول أن يرد على جلاده ويوهمه بأنه غير خائف، وبهذا فعل ما يريده الجلاد. قال: هو يريدك أن تبتعد عن نفسك حتى تصبح هشًا، قابلاً للكسر، كان لا بد أن أكون متواضعًا وأعترف بالخوف ووهن العمر، كان لابد أن أكون إنسانًا لا بطلاً.

***

fb/mashro3pdf

معنى الحياة

فى فترة من حياتى كنت فيها عاطلاً، وقعت فى أسر ثلاث نساء. الأولى امرأة عربية كانت تدير مكتبا للصحافة، عرضت علىَّ مبلغًا مغريًا من المال، كى أرعى فرع المكتب فى القاهرة. كانت تميل إلى الرجال، جعلتنى فى لحظة أتوق للتوقف عن كونى ذكرًا. فى حالة ممارسة الجنس بإسراف يمكن أن يصاب المرء بصدمة، ويتيقن أن الحياة لا يمكن أن تستمر على هذا النحو. يكتشف أن البشر خربوا الطبيعة عندما حولوا الجنس من حدث موسمى للتزاوج إلى هوس. بعد ممارسة الجنس لأيام متواصلة وقعت فى فراغ من البياض. أصبحت مثل خرقة بالية. فى آخر يوم جاءت إلىَّ الشقة. دخلت متعجلة إلى الفراش. سألتها إن كانت تريد أن نتحدث قليلاً، لكنها راحت تبحث عن جسدى. فعلت كل شىء، لكن الجمرة كانت قد انطفأت.

fb/mashro3pdf

تركت القاهرة وعدت إلى بلدتى. قضيت شهوراً طويلة، أقاوم البياض والضعف، وذلك الذهن الذى يشبه سحبًا هائمة لا تتشكل فى أفكار. حتى اتصل بى أحد أصدقائى ليخبرنى إن "سناء صالح" -واحدة من زميلاتنا فى الجامعة- سوف تسافر إلى باريس فى رحلة عمل لمدة ثلاثة أشهر، وتريد أن آخذ مكانها فى إدارة دار النشر الصغيرة. قبلت رغم علمى أننا لا نتفق.

استلمت عملى، وتعرفت على المهارة التى تدير بها حياتها بعد أن تخلصت من كل ما يخص أنوثتها. لم تكن تميل إلى الرجال رغم جمالها. كانت شاطرة فى جذبهم، ثم تركهم فى وسط الطريق. أدركت أنها قناع امرأة، فهى قادرة على جذب الكائنات غير المدربة على تمييز رائحة الأنثى الحقيقية من الروائح الصناعية لأنثى مزيفة. استرحت إلى العمل، وبدا أننا على وفاق، بعد أن تغاضيت عن بعض الفساد.

فى تلك الأثناء جاءت أستاذة مشهورة فى الأدب لنشر كتاب عن الحركة النسائية. كانت سليطة اللسان وفى حركاتها بعض الاسترجال. كنت أنفر منها رغم أننى معجب بأفكارها. حدث صدام بيننا بسبب تأخر الكتاب فى المطبعة، أدى إلى تهديدها بسحبه. يومها تركت المكتب غاضبة. استرحت لأنى لن أضطر إلى التعامل معها مرة أخرى. فى اليوم التالى زارنى زوجها وتحدثنا عن ظروف تأخر الكتاب ثم تحدثنا عنها. قال:

fb/mashro3pdf

"هذه ست نادرة المثال"

اندهشت من التعبير، فأوضح:

"تجاوزت الستين ولازالت تعرف كيف تستمتع بحياتها، وتسعد من حولها."

وحكى قصة تعارفه بها: "تقابلنا في مؤتمر. كان انجذابي لها فوريًا. قلت في نفسي إنها علاقة عابرة، لكنها استمرت ثلاثين عامًا. تدرك شيئًا من سر الطبيعة، وتفهم الناس. تعرف معنى مرور اللحظات البطيء الذي هو الحياة. أعترف لك، لقد عرفتني معنى الحياة."

بعد ذلك بعدة سنوات فارغة، بلا عمل، بلا نساء، شاهدتهما في الشارع في يوم شتوي على الرصيف المقابل. اندهشت من كونهما مازالا أحياء. كانت ترتدي بنطلون جينز وبلوزًا قمحيًا. شعرها المقصوص حتى الكتف أبيض بياضًا شاهقًا، علامة على شيء غامض، لن أتمكن من فهمه أبدًا: معنى الحياة.

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

نظرة نورا

لا يمكن نسيان تلك العيون السوداء المحدقة. تقول "أسماء" إنها نظرة مخيفة تحوم فارغة فوق كراسى الصالون وعلى الصور المعلقة على الجدران. كانت أيامًا عصيبة، عندما مات والد "نورا"، وكان على "أسماء" أن تنزل من بيتها فى الصباح وتبقى فى بيت "نورا" حتى المساء.

الشقة مكتومة لا تفتح فيها النوافذ. قطع الأثاث تشبعت بضوء النيون، والبنات الثلاثة مع الأم بالملابس السوداء، مثل الأشباح يتحركن فى الشقة كأنهن تائهات. "عبير" الكبيرة أخذت كمية من الحبوب، وخرّفت. ظلت تتحدث عن الأشباح وتضحك، وتدفن وجهها فى المخدة. و"سلوى" الصغيرة جلست صامتة على الكرسى تحيط ساقيها بذراعيها وتهز جسدها إلى الأمام والخلف. أما الأم فقد كانت تترك من يعزيها وحده فى الصالة وتدخل غرفتها لتنام.

fb/mashro3pdf

فى البداية شعرت "أسماء" بالخوف من نظرة "نورا" الخالية من أية علامة تدل على أنها تعرفها أو تعرف نفسها. كانت تشبه هوة فارغة، ثم تحولت بعد ذلك إلى عدوانية صريحة، كأنها تقول: "اشمعنى آنت أبوك ما متش". قالت "أسماء" لأمها إنها لا تستطيع أن تتحمل تلك النظرة. نصحتها الأم أن تصبر ولا تترك صديقتها فى هذه الظروف. بعد ذلك أصبحت نظرة "نورا" مُنكِرة وغاضبة، وفى اليوم الأخير فاضت بالكراهية، ثم فجأة نظرت بغلٍّ وقالت لأسماء: "انت قاعدة هنا ليه، مش عاوزة أشوفك". عادت "أسماء" باكية، حاولتْ أمها أن تهدئها لكنها أصرت ألا تخطو عتبة ذلك البيت مرة أخرى، وصارحت أمها: "إنها تكرهنى لأن أبى لم يمت".

فى اليوم التالى بكت "نورا" فى التليفون واعتذرت قائلة إنها لا تعرف لم قالت هذا الكلام. اضطرت "أسماء" إلى النزول. يومها تحدثت "نورا" عن السر. كان أبوها صديقها. يأتمنها على أسراره. كان يريد أن يتزوج من مدرّسة الحضانة عندما كانت صغيرة، ومن مدرّسة الرسم فى المدرسة الابتدائية وفى المدرسة الإعدادية أراد أن يتزوج مدرّسة العلوم، وفى المدرسة الثانوية وقفت له "نورا" وقالت: "تزوجنى".

fb/mashro3pdf

كان الأمر غريبًا لأسماء، وشعرت بأن البيت كله "يبلبع" وأن اختلالًا قد حدث فى الكيانات الأربعة. أرهقتها تلك الأيام، وكشفت لها فكرة كئيبة عن الحياة، وأدركت أن الإنسان كائن مخيف، داخله شر، يمكن أن ينفجر فى أى لحظة، رغم أن "نورا" عادت إلى طبيعتها وعاد البيت إلى حياته العادية، وبدا -بعد شهور- كأن الأب كان يسيطر على كل شىء، ويفرض ضوء النيون كمناخ للحياة.

بعد عدة شهور، أصبحت النوافذ تفتح، والبنات ارتدين ملابس جديدة صاخبة الألوان، ويوم الجمعة غدا أكثر حيوية، تفوح فيه عطور الحمامات، لكن "أسماء" ظلت تشعر بالخوف من نظرة "نورا"، وتملكها شعور غريب، بأن نورا تكرهها وأنها يمكن أن تؤذيها بطريقة ما.

فى ليلة من ليالى مدخل الصيف، حاولت "أسماء" أن تصفى قلبها من الهواجس، بعد أن أنهيتا آخر رسوم مشروع التخرج، وصارحت "نورا" بخوفها من نظرتها. أنكرت "نورا" أن يكون يكون لنظرتها هذا الطابع المخيف وطلبت من أسماء أن توضح لها الأمر، فقالت:

"مش عارفة، نظرتك فيها حاجة غريبة."

"غريبة إزاى؟"

"غريبة."

fb/mashro3pdf

"أيوه يعنى، غريبة إزاى."

"كراهية. كأنك بتكرهى الدنيا، كأنك ممكن تقتلى أى حد".

ضحكت "نورا" وقالت:

"أنا؟"

وأشارت إلى صدرها. فجأة غادرت الضحكة وجهها وسكنت عيناها تلك النظرة المخيفة. ارتعشت "أسماء"، وأصابها نفس الهلع الذى شعرت به أمام تلك النظرة أول مرة. لحظة خاطفة لم تستمر غير ثانية. لكن الرعشة استمرت فى جسدها، حتى عندما استعادت "نورا"، صوتها الطبيعى، وراحت تحكى بهدوء وحزن، عن أنها ساعات تشعر بأن الدنيا خالية من أى حس، مجرد جماد. وفى لحظات تشاهد نفسها من بعيد، كأنها شخص آخر. وتندهش من كونها كائنًا حيًا، تندهش من أن لها يدين، لماذا لم يكونا أربعة؟ وتندهش من أن لها عينًا ترى ما حولها، وتسمع الأصوات، وتسأل: من هذا الكائن الذى يسكننى؟ ذلك الكائن الذى يحدق فىَّ من الداخل، بعيون تفيض منها ظلمات بلا نهاية.

* * *

fb/mashro3pdf

المفهـــرس

فى رمضان الماضى كنت أفهرس مكتبة مدرسة الجمعية الخيرية. أبدأ بالاهتمام بالكتب، أقرأ فقرة من هنا ومن هناك، ثم يصيب السهم، تشتعل شرارة فى الفكر. فى العام الماضى كنت أستعيد فى ذهنى، فى الطريق إلى عملى فى الصباح فقرات من كتاب "ما فوق مبدأ اللذة". علمت نفسى أن أكتب شيئا عن مشاعرى، عن حسى بالناس عن مخاوفى، كنت أكرر الفقرات والعبارات ببطء، سعيدًا بكونها تتجسم فى خيالى. هذا العام يجىء رمضان وأفهرس مكتبة محمد فريد الإعدادية لكنى أحن إلى العام الماضى، لأنه لا شرارة تشتعل فى الفكر، ولا شىء يساعدنى على الإحساس بالتفاصيل من حولى. لحظات التأمل أين ذهبت؟ رحلت مع العام الماضى.

فى العام القادم سوف أكتب نصًا مشابهًا أكتشف فيه أننى فى العام الماضى، كانت حياتى تقف على عادة صغيرة

fb/mashro3pdf

هشة لكنى لا أراها الآن، سوف أراها العام القادم. فى النهاية هناك خلف جدار طينى فى قريتى سوف أرقد. سوف أستعيد تلك العادات الصغيرة التى أعانتنى على المرور عبر هذا الطريق الضيق الطويل، لكى أصل إلى ذلك البيت الخالى المتسع الذى يتيح لى تأمل كل شىء.

* * *

fb/mashro3pdf

الجرح السرى

محمود الرفا يحلق شعره بالموسي، ويستغرق فى رتق الملابس بدقة لا تبارى، ويحدث رفاق المدرسة القدامى، عن أن الثياب مثل البشر تتهرأ أحيانًا، وتظهر على سطحها البثور. النسيج ضعيف فى مكان ما. كل قطعة ملابس لها ظروف صناعة خاصة، مثل ملامح الأفراد. نوع الخيط وسرعة الماكينة وتركيز الصبغات. ظرف يجعل الثوب ضعيفًا فى مكان ما، كما يولد شخص ضعيف البصر، أو عنده ميل للإصابة بمرض ما. لا يظهر ذلك إلا بمرور الزمن. كما أن الثياب معرضة لحوادث مثل البشر، فقد ينتشها مسمار دون أن ينتبه المرء، وقد يشبك البنطلون فى قطعة صاج بارزة من سيارة. يضحك محمود ويشير بفخر إلى أنه جراح يقوم بعمليات دقيقة حتى يعيد الثوب إلى طبيعته.

محمود الرفا وصل الآن إلى الثانية والأربعين ويرفض الزواج، مؤمنًا بنظرية أبى العلاء: هذا ما جناه أبى على، ولن

fb/mashro3pdf

آجنى على أحد. لكن نظريته خالية من جهامة أبى العلاء، يقول بيت الشعر بطريقته، ويضحك قائلا إن الأحوال لا تسمح بأن ينجب المرء فى هذا الزمن. صديقه الحميم "إسماعيل الطحاوى" ينفى أى شكوك فى قدرة الرجل على الزواج، لأنه يعرف الحكاية من أصلها. ببساطة محمود لا يريد أن يقيد حياته، أعطى نفسه بالكامل لفن رتق الثياب، وجعل مهمة حياته لحم النسيج المهترئ وجعله يبدو طبيعيا.

يجلس محمود فى نفس المكان على يمين الباب، على مقعد بحشية من القطن وجانبه الراديو يذيع بصوت خافت أغانى أم كلثوم، مدققا فى الثقوب قبل أن يعالجها، كأنه يتتبع قصة الثوب، محاولاً العثور على الاتجاه الصحيح للنسيج. مر عليه خمسة وعشرون عاما فى هذا الركن. حكاية بدأت فى نهاية السبعينيات. إثر أزمة روحية اختلط فيها الشك فى وجود الله بحب عاصف لفتاة كانت أجمل بنت فى الوجود. كانت تسكن بالقرب من مدرسة الزراعة فى شارع محب. أذهله حبها عن الحياة، فكان يقضى الليل بجانب عمود النور. يحفظ شعر "إبراهيم ناجى"، ويحاول كتابة بعض القصائد. بعد الرسوب الثالث فى الثانوية العامة، حبسه أبوه فى غرفة الجلوس ذات الزجاج فى البيت القديم. كانت ظهيرة حارة والجو خانق بلا نسمة هواء واحدة. بعد قليل دخل الأب وفى يده الحزام. كان محمود وقتها، شعره

fb/mashro3pdf

طويل ينزل ملفوفًا على جانبى وجهه. نظر بدهشة إلى أبيه، وإلى الحزام، وبدا أنه يستيقظ على العلقة السنوية التى يداوى بها الأب حسه بالفشل لأن ابنه لايستطيع أن يجتاز الثانوية العامة. لسبب ما، توقف الرجل عن الضرب وقال لمحمود: تعال.

عبر صخب شارع سعد الدين، متقدمًا بضع خطوات عن ابنه. فى المحل فى شارع القاضى قال له: اجلس. جلس محمود على المقعد الذى يجلس عليه الآن. جاء الأب بحبل وربطه فى الكرسى. كان الأمر غريبًا أن يربطه ويترك يده حرة، لكنها لحظة فاصلة كما يقول محمود، لا يمكنك أن تتأمل تفاصيلها بالعقل. رمى الأب أمام ابنه ثيابًا قديمة، أهملها الزبائن أو مات أصحابها دون أن ينتبهوا لوجودها. أمسك محمود الإبرة والمازورة وبدأ أول أعماله فى مهنة الرفا. الغريب أنه فى هذا اليوم اكتشف شيئًا سحريًا فى الجلوس ساكنًا وفى حركات الإبرة وفى إعادة النسيج إلى أصله، شيئًا غامضًا وجذابًا. بات ليلته فى المحل، حتى بدأت بوادر النهار. فى الفجر حرره أبوه، وذهب لصلاة الفجر فى الجامع الأحمدى، وعاد وهو يظن أن الولد قد هرب، لكنه وجده قد ذهب إلى دورة المياه العمومية بالقرب من ميدان الساعة. أفرغ ما فى مثانته وغسل وجهه وشعره الغزير وعاد ليجلس مكانه ويمسك الخيط والإبرة ويشرع فى العمل.

fb/mashro3pdf

اليوم بعد مضى كل تلك السنين، مازال فى وجهه ظل من صبا، حاول التغلب عليه بحلق شعره بالموسي. يمسك القميص أو البنطلون ويرفعه أمام بصره، كأنه تحد آخر، عليه اجتيازه، عليه أن يعيد النسيج إلى أصله. ظل فى مكانه مثل راهب يصلح ما تفسده عيوب النسيج وحوادث الحياة، ويرفض رفضًا باتًا أن يعيش مثل الناس. إسماعيل الطحاوى يفسر الأمر. أثناء الرتق، أثناء الاندماج فى إعادة نسج الثوب، يستعيد الذهن حسًا قديمًا، يسيح فى الحوادث ويخلط الدنيا ببعضها، يحرر قصصًا قديمة تراكم عليها التراب، يعيد صورًا ومناظر وبشرًا فارقوا الحياة. بمرور الوقت تتبدد طاقة الرغبة فى الزواج تحت تأثير حركة الإبرة. ويؤكد أن محمود لم يأخذ القرار بالتوقف عن الحياة مثل الناس، بل القرار هو الذى تجسد فيه.

يقول محمود إن الرتق مثل التأمل عند المتصوفين، يمكنه أن يقودك، لو أخلصت، إلى سر الحياة. يضحك حتى يخفى الحقيقة تحت غلالة من المزاح، فهو يظن يقينًا بأن رفأ الثياب منحه، استنارة، لم يكن ليصل إليها لو عاش حياة عادية. حتى لو كانت الاستنارة لها طعم مر، فهى تبصر بحقيقة الحياة. كان ذلك منذ زمن بعيد، عندما كان يجلس صامتًا، بلا حركة غير حركة الإبرة، بلا رغبة فى شىء، كأنه يتخلص من قشرة الحياة القديمة ويُبعث مرة أخرى، جاءت

fb/mashro3pdf

الذكرى كأنها إشراق. صورة بسيطة لم يكن يظن أن لها هذا الثقل، وهذا التأثير على حياته. بمرور الأيام ظلت تلح عليه، وتزداد حدة ووضوحًا حتى غدت مثل جرح سرى، يطن كلما فكر فى الزواج.

كان صغيرًا جدًا، يومها ارتدت أمه ثوبًا أزرق يُظهر جسدها. كانت عارية الكتفين شعرها أصفر مقصوص حتى الكتف. وضعت الروج وتأملت وجهها طويلاً قبل النزول. رائحتها مازالت حية يمكنه التعرف عليها. دخلت عمارة ذات مدخل واسع. درجات السلم من الرخام. كان ينصت إلى نقر كعب حذائها فى الطرقة الطويلة المعتمة التى تقود إلى عيادة الطبيب. لم يكن أحد فى العيادة. استقبلها الطبيب بابتسامة ودودة وقادها إلى الداخل. ظل محمود جالسًا فى الصالة، يشعر بأن سرًا عميق الغور يحدث حوله. عندما خرجت من غرفة الطبيب كان وجهها متبدلاً. لم تكن هى التى دخلت، لم يدرك حتى الآن مصدر التبدل. يظن أحيانًا أنه الرائحة التى اختلطت برائحة أخرى. فى هذه النقطة لا يمكن الوثوق فى غير يقين الطفل بأن هناك تبدلاً قد حدث وأن أمه قد غدت واحدة أخرى. لقد لاحظ هذا فى صوت نقر كعب الحذاء المرتبك فى صمت الطرقة التى تقود إلى السلم.

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

على باب الإدارة

يترك مكانه أمام السويتش ويهب ليلاقيني عند الباب الحديدى للإدارة التعليمية. يحدثني فى السياسة وفى نقد الأوضاع القائمة. كانت له رؤية خاصة ويؤمن بشيء من أساطيره الشخصية. قابلني فى الشارع، ذات يوم مترب، منذ أكثر من عام. يومها كانوا قد استدعوه على عجل؛ فالأحداث فى بيته كانت تنذر بالخطر، كان مرتبكًا وهو يحكى عن سلوك الكهرباء التى احتكت، فولدت ماسًا، اشتبك فى شروش البصل فى البلكونة وفى الجرائد القديمة، واشتعل الحريق. جاءت المطافى متأخرة كالعادة، بعد أن سيطر الناس على الحريق. فى الوقت نفسه تعارك طلاب مدرسة الزراعة على مقربة من بوكس الشرطة وكان الضابط يطمئن على إطفاء الحريق، وعندما سأله أحد الواقفين لم لا يتدخل لفض الخناقة، قال: "جئت من أجل الحريقة، عندهم القسم".

fb/mashro3pdf

فى ذلك اليوم كان يحكى المشهد وهو يشعر بالضياع، وبأن العالم على وشك الانهيار. كان يشعر بالحافة قريبة، ولما جاءت الأحداث المهولة، بعد ذلك بعدة شهور، واحترقت أقسام الشرطة وعمت الفوضى، شعر بأنه فى قلب الهاوية، ورغم الاحتفالات التى غمرت البلاد، بعد إزاحة الرئيس من كرسى الحكم، لم يصدق كل ذلك. وصف الوضع بأنه احتفال بفوز الفريق الوطنى للكرة. كان حسه بالهاوية عميقًا. كان خائفًا ومرتبكًا. وعندما يرانى يبثنى مخاوفه وتصوراته عن التدهور والطوفان القادم.

منذ أيام عبرت باب الإدارة، وتطلعت إلى مكانه. بدا أنه لا يرانى وهو ينظر تجاهى من خلف حديد النافذة. مضت لحظات حيرة، كأنه يستحضر معرفته بى من مكان بعيد، وعندما عرفنى، علت ملامحه بسمة باهتة، لكنه لم يغادر مكانه أمام السويتش، وقال بانتصار وبصوت عال:

"ألم أقل لك؟ دخلنا الدوامة، نحن الآن فى مرحلة الدوامة."

* * *

fb/mashro3pdf

شجرة النبء

فى يوم شتوى، مثل هذا، ركب الأتوبيس إلى القاهرة ليتسلم شهادة إنهاء الخدمة العسكرية. مر على ذلك الصباح أكثر من خمسة وعشرين عامًا. يفكر كثيرًا فى تلك الأيام البعيدة. كانت أحلام الشباب حية. العمر ممتد، ملىء بكل ما سيكون. تلك الفترة يصورها العقل على أنها بعيدة، مثل حلم باهت. اليوم يقف فى لجنة امتحانات نصف العام. يتابع البنات منكبات على أوراق امتحان الفيزياء. يركز بصره على ضوء الشمس المشع عبر ورقة صغيرة غضة من أوراق سياج حديقة المدرسة. ويتأمل تعقيد فروع شجرة النبء فى الفناء الصغير، هناك، حيث امتدت بها السنون، وحملت تعرجات فروعها وتشابك أوراقها، إشارة إلى عمرها المديد، منذ ذلك اليوم الذى كانت فيه شجرة صغيرة فى حقل واسع، حتى أصبحت الآن وحيدة فى الفناء الصغير، أمام غرفة الزائرة الصحية. يحاول أن يجد شاهدًا من حياة شجرة النبء على

fb/mashro3pdf

حياته، ويستعملها كرمز لما حدث له، ويتساءل: هل تمارس لحظة تأمل بماضيها متصورة الحياة على أنها تبديد وضياع، أم أنها أكثر حكمة، ترى أن كل لحظة، منذ اليوم الذى فردت فيه أول عضونها فى ضوء الشمس، هى حياة، كل لحظة كانت حياة كاملة؟

***

fb/mashro3pdf

تساقط الشعر

يوم الأحد، فى فضاء المكتبة العامة الخالية من الرواد، حكت سناء ما حدث لها فى الحمام، دون أن تنتبه أن هناك قارئًا يجلس فى الركن. فى الحقيقة لم تره، فقد كانت مندمجة فى الحكى، بعد أن انتظرت أسبوعًا كاملاً حتى عادت نوال من الإجازة. لم تلحظ دخوله المكتبة، بسبب رنين الموبايل فى حقيبة يدها. فى تلك اللحظة انتبهت نوال وقالت له: "سجل اسمك من فضلك". عادت سناء إلى مقعدها وواصلت حكايتها. يوم الجمعة كانت تأخذ حمامًا، ولاحظت أن خصلة من شعرها قد غطت صدرها، كادت أن تطرحها إلى الوراء، لكنها طارت وسقطت على أرض الحمام. وقفت تتحسس شعرها كلما مسحت عليه التصقت بيدها الشعيرات. نظرت مندهشة إلى الماء المتراكم فى البانيو الذى طفت عليه الشعيرات. أحست بالرعب، وارتعش كيانها، فجلست على حافة البانيو. أصبحت منذ تلك اللحظة خائفة،

fb/mashro3pdf

خائفة جدا مما حدث لها. لم تساقط شعرها بهذه الكثافة؟ ورفعت الحجاب، وأخرجت خصلة من شعرها من تحت الإيشارب وقالت: "شوفى بقى خفيف إزاى؟". عندها همست نوال بأن هناك قارئًا فى الركن. فتحت سناء عينيها، كأنما أصابها مس، ثم غطت شعرها بسرعة وقالت بتعجب:

"قارئ؟ ازاى دخل؟ إمتى؟".

"من شوية". أجابت نوال متعجبة من هلع زميلتها.

"وإزاى ماقلتليش؟".

"أقول إيه؟".

"إن فيه قارئًا فى المكتبة".

"كنت بتكلمى فى التليفون".

غابت الحكاية والذهول تحول إلى حالة من القلق والشكوك فى نوال نفسها. قامت وتجولت فى المكتبة كأنما لتتأكد من أن هناك قارئًا فعلاً. كيف حدث هذا دون أن تنتبه؟ وكيف لم تهتم نوال بأن تخبرها بأن هناك شخصًا غريبا؟ وصلت إلى باب المكتبة وأطلت إلى الخارج وعادت إلى مكتبها، وبطرف عينيها لمحت رجلاً فى الخمسين تقريبًا، قصيرًا يرتدى (جاكت) أسود يقف بثبات أمام دواليب قسم التاريخ، كان منظره الراسخ مزعجًا لها، كأنه يتصنت عليها، يترصدها، خاصة أنه كان يقرأ واقفًا فى أحد الكتب. لم

fb/mashro3pdf

يفارقها منذ تلك اللحظة قلق، وحس بالعرى، وكان مؤلمًا أن شخصًا قد اطلع على سرها الذى صانته عن أقرب الناس إليها، حتى تحكيه لنوال. انتقل اضطرابها طول اليوم، من الحيرة أمام سقوط شعرها، إلى قلق من أن شخصًا غريبًا سمع حكايتها.

فى الليل زادت مخاوفها، عندما ذهبت لتشترى حاجات البقالة، من السوبر ماركت، فتركت للكاشير مائة جنية، ولم تأخذ الباقى. عندما وصلت البيت اكتشفت الأمر. تجسد أمام ناظريها ما حدث فى حياتها من اضطراب. اتصلت بالمحل، قال الموظف بأدب: فلوسك موجودة يا مدام تمرى فى أى وقت. جلست فى الصالة حائرة، تسأل عما حدث لها حتى تنقلب حياتها على هذا النحو؛ ابنها الكبير يعمل مهندسًا للبترول فى السويس، وبنتها متزوجة فى الإسكندرية وزوجها لم يرفض لها طلبًا. اضطرت فى هذا المساء، أن تتصل بابن خالتها طبيب الأمراض الجلدية. طلب منها أن تجرى بعض التحاليل، وتزوره فى العيادة يوم الثلاثاء. رأى التحاليل وأخبرها بأن كل شىء "طبيعى". سألت: "طبيعى؟ وشعرى بينزل ليه؟" قال مبتسمًا: "شوية قلق واضطرابات نفسية". اندهشت أكثر من التفسير، فقالت مستسلمة: "والعمل؟" قال ببساطة: "تهدى خالص". ومد يده تجاه دفتر الروشيتات: "هكتب لك مهدئ ومقويات للشعر وكله هيبقى تمام."

fb/mashro3pdf

نزلت من العيادة دون أن تطمئن. راقبت ما يحدث لها أسبوعًا كاملاً. واظبت على الأقراص المهدئة والدهانات، لكنها لاحظت أن شعرها مازال يتساقط. كل يوم تجد شعيرات على المخدة، وفى الفرش والأمشاط، وعندما نظفت السجادة علق بالمقشة عدد كبير من الشعيرات. كلما فكرت أن تأخذ حمامًا يصيبها قلق غامض من أنها حكت حكاية الحمام أمام رجل غريب، ويحضر الى خيالها منظر الرجل الراسخ أمام الدولاب، ويقوى حسها بأنها عارية. بعد أسبوعين زارت ابن خالتها تشكو من أن الأدوية لم تفد فى شىء، وأجرت تحاليل جديدة أكثر تخصصًا، ومرة أخرى كل شىء "طبيعى". قال لها هذه المرة بجدية: "مجرد تغير فى هرمونات الجسم، أعراض التقدم فى العمر".

"كل شىء طبيعى"، قالت لنفسها وهى تقلد طريقته الجهمة، كأنما يريد أن يزيح وهما بطريقة فظة. دخلت فراشها فى تلك الليلة مبكرًا، تحاول أن تهدئ خواطرها وتقول ساخرة: "طبيعى كل شىء طبيعى". فى الصباح قامت من النوم مرعوبة فقد حلمت بالرجل الغريب يفتح باب الحمام ويطل عليها، وهى تحاول أن تجمع خصل شعرها وتلصقه على رأسها. أحاطها فضاء بارد لا يمكنها اجتيازه؛ فلن تستطيع أن تحكى لنوال ولا لأى شخص آخر، هذا الحلم.

fb/mashro3pdf

درس فى التصوير

ركنوا السيارات بجوار مبنى حديث البناء. قادهم "المعلم" فى طريق ضيق، بين عمارات عالية لم تُسكن بعد. انحرفوا إلى منطقة بها بيوت من طابق واحد أو طابقين، مبنية بالطوب الأحمر وبدون دهانات، فى طريقهم إلى البحيرة. تراكمت عند النواصى، أكوام الزبالة يحوم حولها الذباب. ضوء الشمس يظهر لامعًا فى تقاطع الحارات الضيقة، أما فى جوفها، فيصل شاحبًا. رائحة الرطوبة تسللت من مداخل البيوت الضيقة المعتمة مختلطة بروائح الطعام، وزفارة السمك. كانت بعض النساء يتطلعن من النوافذ القريبة من الأرض، باستغراب إلى مجموعة الشباب والبنات الذين يحملون أدوات الرسم، والرجل الأجنبى الذى يسير فى وسطهم فارع الطول بخطوات واسعة، يشير إلى البيوت والنوافذ. كان الرجل مستغرقًا فى إرشاد تلاميذه، إلى أهمية المران على تقبل ما ينفرون منه، حتى يستطيعوا خلق حس

fb/mashro3pdf

بالحقيقة. أشار إلى البيوت وطالبهم بالنظر الطويل المتمهل. أشار إلى إحدى البنات قائلاً: انظرى إلى كفك. رفعت الفتاة كفها، ونظرت إليه. لم يكن له اللون الأبيض الذى تعرفه: كان مشربًا بحمرة خفيفة. سألهم عن سبب تغير لون الكف. قال أحدهم إنه الدم. قالت فتاة شعرها قصير وعيونها لامعة: ضوء الشمس. لون الطوب الأحمر. قال المعلم إنه كل ذلك، انعكس الضوء على أشياء مختلفة حتى وصل إلى كفها. قال لهم يجب أن تعرفوا التعقيد فى كل تفصيلة. يمكن أن تلتقطوا لون البيوت من لون الكف.

خرجوا أخيرًا إلى البحيرة. فى منطقة واسعة نصبوا الحوامل وعلقوا اللوحات. قال المعلم: ارسموا الانطباع. الانطباع يحتاج إلى الصبر. تذكروا هذا. كانت المساحة الممتدة أمامهم تتناثر فيها أكوام المخلفات، والبحيرة تظهر على البعد. هناك، خط أزرق داكن. نبات البوص فى مكان. حذرهم بأن الشمس سوف تغيب خلال نصف ساعة. سوف يبقى الضوء بعدها فترة قصيرة. يجب الانتباه، والتركيز. حامت حشرات مضيئة الأجنحة فى كل مكان، وطن الناموس حولهم. قال لهم، باسمًا، يجب ألا تهشوه. الناموس جزء من المشهد. راحوا يتابعون تغير الضوء السريع غير المحسوس فى الهواء، معكوسًا على ورق البوص وأكياس البلاستيك وملونًا ذلك الدوران الهش للحشرات. البقع التى تنيرها الشمس

fb/mashro3pdf

يتبدل لونها على الدوام، واللون النحاسى يذبل ويتلاشى مخلفًا صمتًا لا يظهر فيه غير صوت أزيز الناموس.

أخبرنى أن تلك التجربة أنقذته من الاكتئاب، عندما عجز السفر والمعارض واللوحات التى تركت له بعض الشهرة والثروة. لم يتبق له من كل تلك السنوات غير تلك اللحظة التى حدث فيها تحول لروحه لم يدركه إلا عندما ضربه الاكتئاب. تخلى لزوجته عن كل ما يملك، من شقق وشاليهات وقطع من الأرض، وجاء ليعيش فى شقة صغيرة بالقرب من البحيرة.

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

صور المدينة

بواكى. بعض الشرفات، بيوت قديمة. أبواب ذات نقوش تعود إلى عصر قديم. صور التقطها أحد أصدقائى. كان قد عاد بعد غيبة طويلة، ناقمًا على كل شىء. يظن أن تربيته هنا حرمته من التمتع بأشكال الحياة المفتوحة، فى البلاد التى يقيم فيها. ظل ليلة كاملة يتحدث عن أن معيشته فى تلك الشوارع سبب تعاسته. البيوت التى تربى فيها هنا أورثته الشقاء. ماذا يعنى شارع عبدالحليم بأرصفة تتكدس عليها مقاعد ومناضد من الخشب الأبيض، وتعوم فى ضوئه ذرات نشارة الخشب؟ ماذا يعنى شارع القاضى ومحل الجزمجى الذى يقرأ الكتب الدينية ويرفض ما لا رجاء فيه من الأحذية، ويقول لك: "أقرأ صفحة من كتاب أحسن؟" ماذا تعنى مدرسة غياث الدين الابتدائية بمبناها القديم وفصولها الواسعة ذات الأسقف العالية والنوافذ الضخمة؟ ماذا يعنى كل ذلك سوى القهر والكبت؟

fb/mashro3pdf

كانت ليلة مرهقة، ليلة أول يناير. نزلنا فى الفجر. كانت المدينة نائمة. ضوء الصباح يتسلل ويبدد غشاوة الليل من فوق شرفات البيوت القديمة. الصمت كثيف نقى. بدت اللحظة نادرة، فيها سكون أوسع من إحساسنا وأكثر غموضًا. هواء الصباح البارد أنعشنا. أمام سينما مصر أخرج الكاميرا، وراح يصور الشوارع الخالية ومبنى قسم البوليس، والعمارات القديمة فى ميدان الساعة. قبل سفره ترك لى نسخة من تلك الصور. أحيانًا أنظر إليها، وأشعر بأنها تحمل حسًا بزمن آخر. هل لمح ذلك الحس الأبدى الذى غشى الشرفات والشوارع، هذا الحس العابر الذى لا يظهر إلا عندما تتكشف المدينة تدريجيًا كأنها تولد من ضوء الفجر. وأتساءل: أى أرواح المدينة كان يصور؟ المدينة التى أورثته الشقاء، أم تلك التى يحن إليها هناك، وتلوح له بهذا الحس الأبدى الذى يظهر فى الصور؟

***

fb/mashro3pdf

رأس العائلة

كنا نعرف أن الشيخ الجليل سوف يزورنا عن طريق التليفون، أو عن طريق مرسال يصل مدرسة أبى، وأحيانًا كنا نجده واقفًا أمام الباب، لايستعمل الجرس، بل يطرق زجاج الشراعة طرقًا خفيفًا بطرف عصاته المعوجة، ويقف ساكنا فى جلبابه الصوف وعمامته. الأيام التى يقضيها فى شقتنا الصغيرة، يختل فيها نظام البيت، نتكدس فى الغرفة الصغيرة. أنام مع أبى وأخى الصغير على سرير، وأمى وأختى على السرير المقابل، وتُخلى له غرفة النوم الكبيرة. فى أيام إقامته لا ينزل أبى من البيت دون أن يطلب منه السماح، وتقوم أمى على خدمته وتناديه: سيدى.

ظلت قرابته لأبى غامضة. فما أعرفه أن جدى مات فى أزمة الثلاثينيات عندما كان أبى صغيرًا، ورعى عمى الكبير الأرض، ليكمل أبى تعليمه فى دار العلوم. لكن الشيخ الجليل كان "رأس العائلة"، كما يقول أبى. فى الإجازات عندما كنا

fb/mashro3pdf

نذهب إلى البلد نشاهده فى شرفة الدوار، كما يطلقون على بيته، وحوله الرجال، يدبر للناس المصالح. كثيرًا ما حكى أبى عن حكمته وعن معرفته لأرض الناحية قطعة، وعن علمه بخرائط المساحة، ومعرفته الدقيقة بتاريخ الملكية. يقول أبى إنه حمى أرض العائلة، ففى نكبة الثلاثينيات، استولى الخواجات على الأرض، فخاض معهم صراعًا فى المحاكم المختلطة حتى استعادها. كان له معارف فى كل مكان، من الإسكندرية إلى الصعيد. يعرفه الموظفون، فى هيئة المساحة ومصلحة الرى، والإصلاح الزراعى، وكان قادرًا على فك الكثير من العقد، حقن دماء ومنع أسر من التفكك.

كانت عمامته - بالنسبة لى - مصدر سطوته. جلسة لف العمامة فيها من الصمت والتقديس ما يغنى عن كثير من الحكايات. أحيانًا يعود من مشاويره. يفك الشال الأبيض عن الطربوش ويطلب من أمى أن تغسله. طالما أحببت تلك اللحظة التى تأتى فيها أمى بالشال الخفيف الأبيض وتقدمه له. يجلس بانتباه. يدخل الطربوش فى ركبته وبتمهل ويقظة، يلف الشال فوق الطربوش فيتحول إلى عمامة، يساوى أطراف الشال حتى يظهر الخط الرفيع الأحمر متساويًا، يرفعها أمام ناظريه ويتأكد من دقة لف الشال، ثم يضعها فوق رأسه الصلعاء، فتتجسد المهابة.

fb/mashro3pdf

اصطحبنى معه كثيرًا فى مشاوير لزيارة أصحابه ومعارفه فى المنطقة المحيطة بالجامع الأحمدى. كنت أرى بعينى مصداق كلام أبى فتلك الحفاوة التى يقابَل بها فى محلات القماش ومن تجار العطارة وفى وكالات الحبوب تكشف عن حظوة لا ينالها إلا أكابر الناس. لكنى لن أنسى أبدًا ذلك اليوم الذى انشقت فيه المهابة.

كنا فى محل الخواجة تادرس، محل كبير لتجارة الحبوب، وكان الشيخ يجلس على المقعد المجاور للخواجة يتحدثان فى شئون الأرض، ويومها قام الخواجة تادرس لكى يتحدث مع أحد التجار عند باب المحل، عندها لمحت يد الشيخ تمتد إلى الدرج وتحمل ورقة نقدية خضراء كبيرة وتدسها فى سيالة الجلباب، وفى اللحظة التالية مد يده وأحكم طوق جلبابه على رقبته كأنه لم يفعل أى شىء. لقد رأيت تلك اللحظة الخاطفة التى ربما لم يدركها الشيخ نفسه، لأنه عندما عاد الخواجة تادرس أكمل حديثه بنفس نبرة الصوت دون أى ارتباك قائلاً إنه سوف ينتظره الجمعة القادمة فى البلد لكى ينهى له مشكلة المؤاجرين.

لم أصدق هذا المشهد حتى الآن. الصورة محفورة فى كيانى كأنها من الصلب. كأن خيالى هو الذى ابتكرها. كأننى ألوم نفسى لأننى رأيت تلك اللحظة. لقد ظل المشهد عجيبًا، خاليًا من المنطق، ربما كان فوق تحملى لأنه تحول إلى حس

fb/mashro3pdf

بالذنب لأني رأيته. ما كان يجب أن أراه. ما كان يجب أن تكون لي عينان حتى أرى يد الشيخ الكبير تمتد إلى داخل الدرج.

***

fb/mashro3pdf

رائحة البلومونت

قال عم حسين الترزى: منذ خمسة عشر عامًا كنت أدخن سجائر "بلمونت"، لكن الزمن تغير، ولم تعد موجودة. كيف اختفت من حياتنا؟ لا أحد يعرف. لم اختفت؟ لا أحد يعرف. بعدها انتشرت سجائر "الكيلوباترا"، العادية والسوبر. حاولت التأقلم معهما. كان يمكن أن أحبها كما أحببت "البلمونت"، لكن جاءت أول أزمة قلبية فتوقفت عن التدخين. عندما يأتى زبائن ويدخنون السجائر، تضايقنى الرائحة. لكن أتركهم يدخنون تلك السجائر التى لم أدخنها، كأنى أبحث عن رائحة سجارة "البلمونت".

ذات ليلة كنت أغلق باب المحل. سمعت صوت أغنية "سواح" يأتى من راديو بواب، يجلس أمام عمارة جديدة، فى شارع حسن رضوان. شممت رائحة السيجارة، شممتها كأنى مازلت أدخن، ثم رفعت يدى إلى جيب القميص أبحث عن علبة "البلمونت"، رجعت إلى البيت متعبًا. كان الوقت صيفًا

fb/mashro3pdf

والعيد على الأبواب، ولم يفارقنى التعجب لعدة أيام، أين اختبأت تلك الرائحة وكيف عادت؟

عم حسين يحكى عن تلك اللحظة كأنها لحظة إلهام. لحظة تجسد الماضى فى الحاضر. يظل التعجب هو سمة حكاية "البلمونت". يرفع عينيه بعيدًا عن القماش، يترك المقص من يده، وينظر إلى فضاء الشارع فى لحظة يصعب تفسيرها، ثم يمسك المقص مرة أخرى، ويقول: لم يعودوا يذيعون أغنية سواح كثيرًا.

* * *

fb/mashro3pdf

رسمت بخفة

وجه نحيل. عيون عسلية واسعة. بسمة تلوح خلف الملامح وهى تنظر باستغراق لوجوه التلاميذ. كنا فى حصة الرسم. شعرت بها تقف ورائى. لم أستطع أن أرفع عينى عن الكراسة. مالت تجاهى، فمال شعرها، واهتزت أطرافه البنية فى الفراغ بين كتفها والكراسة. قالت: "المركب صغير جدًا." أمسكت القلم الرصاص. رسمت بخفة عددًا من الخطوط. لاحت على الفور مركب بأشرعة تحيطها تموجات توحى بنهر واسع. مازلت أذكر أصابعها النحيلة الشاحبة ولون طلاء أظافرها الأحمر. ظل صعبًا علىّ فهم وتحمل تلك اللحظة الغامضة. بعد سنوات طويلة لاح لى أن رائحة الفجر التى كانت تفوح منها هى سبب الغموض. الحقيقة أن تلك اللحظة معقدة جدًا، أصبحت بعدها غير قادر على الرسم بقية حياتى.

fb/mashro3pdf

تلاشت تلك السنوات، وهدمت مدرسة رقى المعارف الابتدائية فى زلزال التسعينيات، وكلما مررت من هناك رأيت أعواد البوص تتمايل بقممها الرفيعه خلف السور.

***

fb/mashro3pdf

رأيت نجيب محفوظ

كل من حلق شعره عند "حافظ" فى صالون "فرندز"، يعرف حكاية لقائه بنجيب محفوظ. بعضهم قرأ القصة التى اطلع عليها "نجيب" بنفسه ومدحها قائلاً إنها قصة رمزية، ونصح "حافظ" بكتابة شىء عن الواقع. لكن الأغلب سمعوا قصة اللقاء بوصف دقيق، لم يختلف كثيرًا بمرور السنين. كان حافظ عائدًا فى إجازة من الجيش، يمشى بسرعة باتجاه ميدان التحرير، ليلحق بأتوبيس يقله إلى رمسيس، عندما لمح نجيب محفوظ جالسًا داخل مقهى فى ميدان التحرير.

تلك لحظة لا يمكن نسيانها، توافقت مع حدث آخر، منحها سمة الترتيب القدرى. فى نفس اليوم كان حافظ قد كتب قصة قصيرة أثناء خدمته الليلية، خطها بقلم جاف استلفه من خدمة السلاح. كان القلم يكب حبرًا فاندمجت بعض الحروف. لكنها لحظة إلهام لا تتكرر كثيرًا فى حياة

fb/mashro3pdf

المرء. الإدراك المفاجئ لتوافق الحدثين، دفعه بدون وعى تقريبًا، أن يدخل المقهى، ويقترب من الأستاذ معتذرًا وطالبًا دقيقة، يطلعه فيها على قصته. قد يكون الرداء الميرى ومنظره المبهدل، والتوتر الذى يتركه الإلهام فى الملامح هو ما جعل الأستاذ يقبل الطلب. أزاح بهدوء فنجان القهوة وسمح له بالجلوس. عندها ارتبك "حافظ". ضاعت لحظة الاندفاع، وبدأ التوتر. أخرج من جيب السترة العسكرية ورقة مطوية وناولها للأستاذ. قلب نجيب محفوظ الورقة بين يديه وقال: "سأسمعها بصوتك".

حافظ يقطع الحكاية هنا، ويصف صوت نجيب محفوظ الرخيم الهادئ، ونظرته الطيبة، ويصف شعوره بالقلق، وإحساسه كأنه قد وقع فى امتحان وهو بطبيعته يكره الامتحانات وإلا لما كان هذا حاله. تغلب على قلقه وقرأ القصة والرجل ينصت إليه بجد. سادت لحظة صمت وأصبح حافظ فى غاية الخجل من نفسه، وفكر بأنه ما كان يجب أن يدخل المقهى ويقطع على الرجل خلوته. قضى لحظات صعبة فى انتظار نتيجة الامتحان. رفع نجيب وجهه وقال بصوت ازداد رخامة وعمقًا وجدية، إنها قصة رمزية، وأخبره بأنه يمكنه أن يكتب قصصا واقعية.

لم يشعر حافظ فى حياته بحالة انفعال وبهجة جذبته خارج نفسه على هذا النحو، كأنما تخفف من كل الهموم: من

fb/mashro3pdf

صعوبة أيام الجيش ومن قلقه على المستقبل، كأنما يطل على الدنيا من فوق هضبة، بعيدًا وفرحًا، يقدر على فعل أى شىء. كان منفعلاً حتى أنه فوت على نفسه عدة أتوبيسات ذاهبة إلى مدينته قبل أن يفيق من الذهول، ثم استبدت به حالة من القوة والثقة بأنه يمكنه أن يكتب قصصًا واقعية. عاونته تلك الثقة أن يجتاز ما بقى من مدة التجنيد، واستحضرها كلما هبطت معنوياته.

حكى حافظ القصة طوال تلك السنوات بنفس التفاصيل، ابتداء من معسكر الجيش حتى عمل حلاقًا فى محل فرندز. حُملت قصته إلى الصعيد مع زملاء الجيش وسافرت بلادًا بعيدة مع أبناء الحتة ورفاق المدرسة الذين رحلوا إلى الخارج وعرفها زبائنه الذين لم يكن لهم حظ مرافقته أثناء تلك الفترة المبكرة من حياته عندما كان مغرمًا بكتابة القصص، حتى وصل حافظ إلى مشارف الأربعين من العمر، واستقر فى الأذهان أخيرًا أن تلك الرغبة فى كتابة القصص سوف تستمر مجرد رغبة، وأنه لن ينفذها، فربما اكتفى بقصة نجيب محفوظ بديلاً عن القصص التى يجب عليه أن يكتبها.

تقابلت قصة حافظ مع قصص أخرى لشباب آخرين تقابلوا مع الأستاذ أثناء دراستهم فى القاهرة. واحد منهم كان يدرس الهندسة فى جامعة الأزهر، وكان يلتقى مع رفاقه فى مقهى قريب من دار الإفتاء ليتدربوا على العزف على

fb/mashro3pdf

العود. كان نجيب فى ذلك الوقت يزور مكتبة دار الإفتاء، وفى الظهيرة يأتى ليجلس فى نفس المقهى. ذات يوم سأل أحدهم: مش ده نجيب محفوظ؟. انتبه الأستاذ واستدار إليهم قائلاً: مساء الخير. تشجع الشباب وجلسوا معه. طلب منهم أن يسمعوه بعضًا من عزفهم. أخبره أحدهم بأنه يكتب القصص. قال نجيب: إن كنت تمتلك موهبة فهذا حظ جيد، وإن كنت لا تملكها وترغب من كل قلبك أن تكتب القصص، تمرن حتى تتقن هذا الفن، مثل العزف، حتى لو كتبت أخبار الجرائد فى شكل قصص.

لم يكن لهذه القصة حماسة قصة حافظ، لم يكن لها هذا الوقع المثير المباغت كالإلهام، واحتفظت قصة حافظ بجاذبية خاصة لأنه يشحنها على الدوام بإعادة بعثها والتأمل فى تفاصيلها، خاصة ذلك الفرح الذى استبد به بعد اللقاء. يخرج الورقة التى تهرأت بمرور السنين كى يريها لمن يظهر فى عيونهم شك من أنه كان يكتب القصص ذات يوم.

الأمل الذى بعثه لقاء نجيب محفوظ مازال حيًا، ومازال حافظ يؤكد بأنه سوف يكتب القصص ذات يوم، عندما يفرغ من هموم الحياة وإن لم يتمكن من ذلك فعلى الأقل سيكتب قصة واحدة: قصة "محمد غباشى". تلمع عيونه ذات الحدقات الواسعة، ويقول بتصميم إن حياته لن يكون لها معنى إن لم يتمكن من كتابة هذه القصة. "غباشى" كان

fb/mashro3pdf

سيصبح أعظم كاتب، أعظم من محفوظ نفسه، لولا الموت الذى اختطفه بلا مبرر، ويحكى بدهشة عن اللحظة العبثية التى أودت بحياة "محمد" عندما صدمته سيارة أمام مستشفى الحميات عندما كان عائداً ذات ليلة من القاهرة.

سيكتب حافظ القصة، لابد أن يكتبها، سوف يحكى عن ألعاب الطفولة أيام بناء مستشفى الهلال، وينقل جو مساكن البطرويشى، ويتوقف عند الفترة التى تعلقوا فيها بقصص تشيكوف. سيعيد تجسيد حياة مضت وكيف تربص بها الموت بطريقة غريبة. سيعيد حساب تفاصيل تلك الليلة التى مات فيها "محمد غباشى"، لكى يُظهر عبث الحياة، فلم تكن نسبة موته تتعدى الواحد فى المائة، سيكون الوصف كله من أجل الإجابة عن السؤال المفجع: كيف يمكن لشخص أن يخرج فى الصباح ثم لا يعود؟

من يسمع تلك التفاصيل لابد أن يصدق أن "حافظ" سوف يفعلها، وأنه قريب جداً، هذا اليوم الذى سيترك فيه محل الحلاقة وبيت العائلة، ويسافر بعيدا ليكتب قصته، بادئًا بالمشهد الشهير الذى رواه عشرات المرات، عندما كان "غباشى" يرقد على السياج العريض للشرفة فى الطابق الأخير، ويراقب نجوم السماء ويقرأ من الذاكرة قصة "الراهب الأسود" لأنطون تشيكوف.

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الأوانى

اشترَت اليوم عددًا من أوانى المطبخ. مسحت بيدها السطح الداخلى لأحد الحلل وقالت: كل أبيض به طيف من لون آخر. الأبيض أكثر الألوان خداعًا. لم يفهم قصدها، والتمس لها العذر. فهى تتصرف على نحو غريب منذ أن سافرت ابنتهما. جلست على مقعد من البلاستيك، وراحت ترص الأوانى بحسب الحجم على شكل هرم، ثم قالت إن جدتها كانت تستعمل أوانى النحاس، وأمها أوانى الألمونيوم، وهى تستعمل أوانى من الصاج مطلية بالميناء البيضاء، فى لهجة تشير إلى الهبوط من المعادن النفيسة إلى المعادن الخسيسة. تركت باب ضلفة الدولاب مفتوحة وأكملت حديثها حول أوانى النحاس التى كانت تظهر على سطحها طبقة مخضرة اللون، ولابد أن تحمل إلى مبيض النحاس كل فترة. عاصرَت أمها فترة النحاس، غير أنها قضت حياتها تستعمل أوانى من الألومونيوم، حتى شاع أن الألومونيوم

fb/mashro3pdf

يتفاعل مع الأطعمة الغنية بالأملاح المعدنية. تبادلت نساء العائلة الوصايا بأن الواحدة لو اضطرت أن تطبخ السبانخ فى حلة من الألومونيوم، يجب نقلها على الفور إلى إناء آخر. وصل الأمر إلى استعمال أوانى الصاج. مسحت بيدها السطح الداخلى واستغرقت فى التفكير، وتمتمت لنفسها: "لا شىء أبيض خالص".

فى اليوم التالى اشترت أنواعًا مختلفة من الأطباق الصينى ذات النقوش الهندسية، والأكواب ذات الأحجام المختلفة، والفناجين المزينة بالزخارف النباتية، ولم تهتم بإشارته إلى ارتفاع الأثمان ونقص المدخرات. قضت أغلب النهار تطمئن على العدد والحجم والأشكال، وتفرغ الكراتين وترصها فى الدولاب، ولا تكف عن الحديث عن نوع الأوانى التى استعملتها جدتها وأمها. أرجع ذلك إلى رغبتها فى التخلص من القلق، فقد أسرت إليه بأنها خائفة ألا ترى ابنتها مرة أخرى. تركها تسرد ذكرياتها منتظرًا أن تتوقف تلك الحمى ذات يوم. لكنها راحت تكرر كل يوم تقريبًا حكاية الأوانى، كأنما تبحث داخل حكاية جدتها وأمها عن نجدة من القلق.

بعد عدة أيام وقع غطاء حلة وتقشر الطلاء الأبيض، وظهر لون الصاج الداكن، وحكت بنبرة لائمة حكاية الهبوط من المعادن النفيسة إلى المعادن الخسيسة. فى ذلك اليوم

fb/mashro3pdf

انهار تفسيره حول القلق كأساس للقصة. بدا له الأمر أعمق وأنه ساذج لأنه ظن أن تكرار الحكاية بهذا الشكل، مجرد توارد خواطر. استعاد فى ذهنه عدد المرات التى حكت فيها القصة وراقب النبرة ولمح بعض الشواهد حول التعمد وتلك الإشارة الخفية الموجهة إلى حياتهما التى تشبه المعدن الخسيس مهما طليت بلون أبيض لامع، وأن موافقته على سفر البنت للدارسة، رغم معارضتها، شاهد على ذلك.

بمرور الأيام لم يخف القلق. رغبتها فى شراء الأوانى والأشياء زادت، حتى خاف أن تستنفد ما تبقى من مدخرات. أوقفها ذات يوم قبل أن تنزل لتشترى فازات لغرفة الصالون. أخبرها بأنها لن تشترى شيئًا بعد اليوم. تحول النقاش إلى مشادة اندفع أثناءها -بدون وعى- إلى الدولاب وحطم رفا من الأوانى الخزفية. نظرت إليه كأنها تفيق. جلست على البلاط تلم شظايا الخزف ببطء وصبر رغم ارتعاش أصابعها. أفاق من غضبه مدركًا أن تلك الصلابة التى تواجه بها المواقف مجرد طلاء، وأنها أكثر هشاشة مما يظن وتذكر ليلة المطار، عندما ودعا ابنتهما وكيف ظلت صامتة وأثناء عودتهما فى السيارة انهارت وقالت، كأنها ترى حياتها لأول مرة: "ما كان يجب أن أطاوعك. كان يجب أن أنجب خمسة أطفال".

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

لابد أنها ريشة يمامة

ريشة صغيرة طائرة، تموجت، واقتربت من سياج الشرفة. حطت بجانب قصرية الصبار. ليست ريشة عصفور. "ريشة يمامة" يقرر لنفسه، ذات لون رمادى داكن، تنتشر درجاته من البنى حتى الفضى. الرأس الصغير مدبب مثل إبرة مجوفة، أو سن أقلام البوص. ذلك الرأس كان مغروسًا فى جسد الطائر. تنبت الريشة مثلما تنبت ورقة الشجر. تبدأ صغيرة، زغب طرى ثم تأخذ بمرور الوقت تلك الألوان اللامعة، وعندما يأتى أوان التغير تترك الجسد مثل ورقة ذبلت، لكنها تحتفظ بخفتها ولا تتبدد مثل ورق الشجر. تبقى فى مكان ما، فترة طويلة، تواصل حياتها الخاصة.

قال مرة أخرى: "لابد أنها ريشة يمامة". وضع الكوب الذى يسقى به الزرع على سياج الشرفة وراح يتفحصها، بميل تجاه جعلها ريشة يمامة. كأنه يريد أن يرى علامة مادية تؤكد وجود اليمامة التى تصدر ذلك الصوت الناعم

fb/mashro3pdf

العذب فى الصباح، على غير توقع، فينشرح صدره ويستبشر بيوم طيب. يظل أثناء تناوله فنجان القهوة يحاول أن يحدد مكان الصوت بلا جدوى. يوم الجمعة عندما يسمع صوت اليمامة، يكون لديه الوقت للبحث. يطل من شباك المطبخ على السطح الخالى المفروش بالشمس، ثم يذهب إلى الشرفة البحرية، ويتطلع إلى عشة الدجاج هناك فوق سطح البيت المقابل، عله يعثر على شبح اليمامة التى تهبه صباحات طيبة. يمسك الريشة ويتطلع إليها ويقول لنفسه بتصميم: ريشة يمامة، ويقرر أن يحتفظ بها.

* * *

fb/mashro3pdf

الراوى

قال عم إسماعيل:

"مظهر" الخطاط تعيش إنت. وجدوه ميتًا فى بيته. الجثة -بعيد الشر- طلعت رائحتها. لم يعرف أحد عن موته إلا بعد عدة أيام. كان رجلاً طيبًا. لكن الموضوع أن بنته، خاصمته، لأنه فضل أخاها عليها، وكتب له ربع بيت شارع القاضى. غضبت عليه، لم تزره بعدها. مات وحده دون شربة ماء. لا يمكن أن يصدق المرء ما تفعله الدنيا.

فكرت فى "مظهر" الخطاط، عندما كان يستعد لكتابة لافتة جديدة. كانت الحتة تتحول إلى عيد. يطل "فهمى" من شرفة الطابق الأول الواسعة، ويطلق صفيره المتقطع، نتجمع بجانب سور مدرسة البنات. ننتظر صامتين أمام اللافتة التى تمتد بعرض الحائط، لا يظهر منها غير شبكة مبهمة من الخطوط. الإثارة تكمن فى الطريقة التى تتحول بها شبكة

fb/mashro3pdf

الخطوط إلى حروف ثم [illegible] فيلم فى سينما ريفولى، افتتاح محل جديد، [illegible] الانتخابات بالعيد. نحبس أنفاسنا، مدركين أنه عصبى، يمكن أن يحرن ويزعق فينا: "قوم ياله إنت وهو من هنا". تذكرنا أن تشكل الخطوط حروفا، استمرت طول الوقت مصدر دهشتنا، وأعطت "مظهر" الخطاط مكانة عالية. كيف يمكنه أن يرسم حرف العين على شكل فم مفتوح يخيل إليك أنه سيبتلع قطة، أو يجسد فى حرف الهاء ثعبانًا ملتويًا على نفسه، وحرف الجيم يظهر مثل رأس حيوان يمد فما ممطوطا إلى الأمام. كنا نشعر بالفخر عندما نرى اللافتة معلقة فى شارع القاضى أو سعد الدين، لأن ما تراه المدينة الآن عاياه فى حالة الصنع، داخل الفرن قبل أن يتحول إلى معروض عام.

عم "إسماعيل" هو الذى حكى عن موت "الست سوسن"، التى تسكن البيت القديم على الناصية. يومها قال: أردت أن أخبرك، (ولا أعرف لما أراد أن يخبرنى) لم يكن لها أحد. حضرت الدفنة. كانت جنازتها فقيرة. لا أصدق كل هذا الجمال والعز وتموت وحيدة على هذا النحو. عاشت وحدها طويلاً كما تعرف، وقد كبرت فى السن. وهى تموت كانت تنادى المرحوم حامد. يموت الناس لكنهم يبقون أحياء فى قلوب محبيهم. المشكلة أنها لم يكن لها أحد. جاء رجل من بلد أرياف، وادعى أنه قريبها. الآن يحاول الاستيلاء على

fb/mashro3pdf

البيت، لكن على مين؟ عمك إسماعيل له معارف فى المساحة، وسأعرف أصل البيت وفصله.

عم إسماعيل يعرف تلك المنطقة بيتًا بيتًا، ورغم أنه جاء من بلد أرياف منذ أربعين عامًا، وعمل بوابًا لعمارة أحد أقاربه، غير أنه كان قادرًا على معايشة ما يحدث حوله ونقله بدقة حيرتنى أحيانًا. كان يمكنه أن يصف أيام زمان عندما كانت تلك الضاحية فى شرق المدينة بيوتا متباعدة تتخللها غيطان البرسيم والقمح، وعلى باب بيت عبدالعزيز بك يعلق فانوس كبير. ويرن فى صمت النهار صوت الطاحونة المتقطع الأجش. وفى شونة الغلال الواسعة بالقرب من الترعة تسكن جنية ظن الناس أن همسها الناعم يسرى فى ليل الشتاء. يحكى عم إسماعيل كيف تحولت المنطقة بالتدريج، إلى مكان صاخب على هذا النحو، يتعجب من العمارات العالية ومن تنوع البشر وتغير حياتهم.

هناك، بعيدًا، فى بلاد وشوارع لها طابع آخر، يعبر عم إسماعيل خيالى، جالسًا على مقعد خشبى أمام الكشك، يلف رقبته بشال أبيض، ويتابع شيئا ما، يحدث فى أحد البيوت. أفكر فى أسلوبه فى حكاية القصص، كيف يصور الأمر كأنه يعيش فى الحكاية. لا يكرر ما يسمعه مثل ناقل إشاعة، بل ينتج الحياة ويتأملها، ولأنه ظل على نفس الهيئة منذ أيام صبانًا، بوجهه النحيل وعيونه التى تزداد بريقًا أثناء حديثه،

fb/mashro3pdf

فقد ظننت أنه سيبقى فى مكانه إلى الأبد، مشرفًا على مصائر أهل الحتة، وعندما عدت آخر مرة من سفرى، ورأيت الكشك مغلقًا، كان حزنى مشوبًا بالغضب، فقد شعرت بأنه خذلنى ولم يكن خالدًا مثلما ظننت. قال "أشرف" البواب إن زوجته رجعت إلى البلد مع الجثمان.

سافرت ورجعت عدة مرات، وفى كل مرة، يتسع الصمت بينى وبين حتتى بعدما فقدت لسانها، حتى غدت مثل غيرها من الأماكن.

* * *

fb/mashro3pdf

رواد قهوتى

رواد "قهوتى" فى ميدان الساعة، كبار فى السن، يتجمعون كل صباح كأنهم مازالوا فى وظائفهم. يدخل بعضهم المقهى بنفس التروى الذى كان يدخل به مقر وظيفته، ضابطًا نفسه على رنين الثامنة. بعضهم يأتى فى العاشرة، وبعضهم يأتى ليقضى فترة الظهيرة. "قهوتى" هى المكان الذى تجمعوا فيه فى التسعينيات عندما بدأت المدينة تفقد طابعها القديم وتتحول إلى أبراج وعمارات جديدة، ولم يتبق لهم أى مقهى له رائحة زمنهم.

فى تلك الأيام كنت أقضى فترة الصباح فى ذلك المقهى. كان بعضهم يبدو حكيمًا لم يفقد سمته كعربى، كما كان المعلمون يسمون أنفسهم. نصحنى أحدهم ذات يوم أن أقلع عن التدخين، وقال إن الأمر بسيط مثل الفطام ستبكى قليلاً ثم تعتاد الأمر. أحدهم حاورنى حول كتاب كنت أقرأه. أحدهم قال ساخرًا: "كله عند العرب صابون". كانوا السبب

fb/mashro3pdf

الحقيقى لهجرى هذا المقهى، فقد شعرت بأن وجودهم ملىء بالشجن وفى أحاديثهم نوع من التحسر على الأيام الماضية وتسلل إلى حسهم الحزين بأن الزمن لا قيمة له، وكل كفاح بلا معنى، رغم أنهم يلعبون الدلاولة ويتشاجرون كالأطفال، وفى بعض الأحيان تهب خناقات، كادت فى إحدى المرات أن تصل إلى الضرب بالكراسى بسبب خلاف حول "دو أو مارس".

كان الأمر صعبًا عندما مات أحدهم، وجاءوا من الجنازة بعضهم بالبدل الكاملة وبعضهم بجلابيب بيضاء لامعة، وجلسوا يتناولون مشروباتهم صامتين كأن الموت يحدق فيهم، كأنهم يتساءلون سرًا: "من عليه الدور؟". كان جوًا كئيبًا لم أستطع أن أتحمله وفضلت الابتعاد عن المقهى، كأنما أحاول أن ألغى تلك الفترة من حسابى، كأنى لن أدخلها ذات يوم وأحجز مقعدًا مع أصحابى هنا، ولن أفارق أبدًا عمر الثلاثين الذى كنت أعيشه فى ذلك الوقت.

* * *

fb/mashro3pdf

المعلم راضى

حتى آخر أيامه ظل يرتدى الجلباب البلدى والعمامة. يتحدث عن نفسه قائلاً: "أنا المعلم راضى". كان ناقمًا على البلد والناس. لا يرى فى الحياة غير أسوأ ما فيها: النوايا السيئة، وكلمته الأثيرة: "الناس هتاكل بعضها". بصراحة كان رجلاً متعبًا، شردنا نحن الخمسة فى البلاد: العراق، الخليج، ليبيا، الأردن، حتى لبنان. لا أعرف أين إخوتى. لولا عمتى ما أنهيت معهد الخدمة الاجتماعية. أحيانًا أفكر أنه عمل كل ما بيده. يكفى أنه كان يوفر لنا اللقمة. أحاول أن أتعاطف معه عندما أفكر ما كان يعانيه عندما كان يلف على القرى يحمل على ظهره بؤجة القماش. النساء يدوخنه حتى يشترين منه قطعة قماش أو بكرة خيط. لكنى أعرف أنه كان يتلاكع معهن. يرمى لأمى الخمسين قرشًا فى الصباح ويدوّر "الفسبة"، ويضع الصندوق على ظهرها ويمضى ولا يعود إلا فى الليل.

fb/mashro3pdf

ما كان يمكن أن ينتقل من ركوب "الدراجة" إلى استعمال "الفسبة". حدث الأمر غصبًا. كل جمعة كان يغسل "الدراجة" بالجاز ويشحم الجنزير. تركها أمام البيت وذهب ليصلى الجمعة. عاد فوجدها قد سرقت. أقسم أنه لن يصلى الجمعة أبدًا، وضربنا جميعًا، وألزم أمي أن تكنس البيت وتغسل، وظل جالسًا على الكنبة بالفانلة واللباس حتى المساء. كان حائرًا لا يعرف ماذا يفعل: من الصعب أن يعود لحمل البؤجة على ظهره مرة أخرى. كان الأسطى حسين الميكانيكى يغريه، منذ فترة، أن يبيع "الدراجة" ويشترى "فسبته" القديمة. فى ذلك المساء لم يكن هناك مفر من شراء "فسبة" الأسطى حسين بالتقسيط. عذب الرجل حتى خلّص ثمنها.

من أيام البؤجة حتى أيام الفسبة، لم تتوقف أمى عن تجهيز الماء الدافئ بالملح ليضع قدميه فيه، عندما يعود. ذات يوم عاد من الشغل بدرى وقال لها إن نفسه مكروش. تمدد على الكنبة فى الصالة وذهبت لتجهز الماء بالملح. عندما عادت وجدته نائمًا على جنبه. قالت: "يابو محمد نمت؟ إنت نمت يا خويا؟" لكنها بعد قليل أدركت أنه مات. صرخت من الصدمة: "يا حبيبى يا خويا". كنا مندهشين لأنها لم تر يومًا حلوا فى حياتها كما كانت تقول دائمًا. لن أفهم أبدًا هذا الحزن الذى حط على أمى منذ ذلك اليوم.

***

fb/mashro3pdf

السفر

لم أعد أملك شيئًا تجاه توترى قبل السفر. كل مرة يكون السفر عاديًا: لزيارة أختى فى البلد، أو لقضاء بعض المشاوير الضرورية، أو لمقابلة أصدقاء يتنادون من بلاد مختلفة للجلوس فى مقهى وتناول الطعام معا، والحديث عن أيام شبابهم. يصيبنى توتر فى أعضائى، ويصبح قلبى جافًا، يطلق نبضاته بمشقة. بدأ الأمر منذ أن وصلت إلى الخمسين، عندما كان ابنى على وشك الدراسة فى جامعة الإسكندرية، وكان على أن أسافر لكى أعد له مسكنًا. يومها حدث الاضطراب الأول؛ ذلك التوتر فى العضلات، وذلك الجفاف فى الحلق وتزايد عدد السجائر التى أصرح بها لنفسى كل يوم، والحس بأن الدنيا غائمة على نحو ما. يومها داريت الأمر عن زوجتى ورتبت كل شىء بدقة. ركبت سيارة أجرة إلى المحطة، وقبل أن أصل تذكرت أنى نسيت تذكرة القطار. من حسن حظى أن المدة بينى وبين القطار كانت

fb/mashro3pdf

نصف ساعة وكنا يوم جمعة. سمح لي ذلك بالرجوع إلى البيت والعودة بالتذكرة قبل ميعاد القطار. تكرر الأمر عدة مرات وبأشكال مختلفة. أشعر بأن نومي يضطرب ليلة السفر ومهما حاولت أن أقول لنفسي أنه مجرد مشوار صغير، وأن الأمر يمكن أن يكون جيدًا، سأرى الناس وأتحدث وأستمع، وأعيش لحظة مختلفة، غير أن ذلك لايجدي. يستمر الإرهاق، حتى غدا علامة مميزة ليوم السفر. تباعدت مرات سفري حتى انقطعت تمامًا، وأصبحت أتهرب من السفر كما يتهرب التلميذ من الذهاب إلى المدرسة.

لا أعرف كيف حدث التحول، فقد كان السفر في أيام الشباب متعة. الشهر الذي يكون فيه مشوار إلى الإسكندرية أو القاهرة يكون شهرًا منيرًا، أعد نفسي للسفرية قبلها بعدة أيام. أقول إنها فرصة لالتقاط الأنفاس، من إرهاق المسئولية. وقتها كانت زوجتي تثير المشكلات قائلة إنني لا أعبأ بالبيت وأهرب من مسئولياتي، واحتفظت منذ ذلك الوقت بعبارتها الشهيرة: "تريد أن تتخلص منا"، وتشير إلى نفسها والأولاد. كيف تبدلت الأحوال؟

اليوم يجب أن أسافر لاستخراج شهادة ابني من الجامعة لأنه يعد أوراقًا للسفر في مصلحة حكومية أخرى، ورغم أن الأمر بسيط غير أن حلقي طول الليل جاف، وقلبي أسمع نبضاته ترن في ضلوعي. الأمر بسيط، اهدأ، أقول لنفسي،

fb/mashro3pdf

لكن الاضطراب لا يسمع الكلام، ويستمر فى الظهور، كلما أبعدته. أحاول أن أجد تفسيرًا لذلك القلق: سأكون بعيدًا عن كل ما آلف، ولم تعد بى طاقة للتآلف مع مكان آخر، لقد أجبرت روحى على التآلف مع هذا المكان، ولم يعد هناك مجال لشىء آخر. لقد تيبست روحى هنا وشاخت، وكل سفر يكشف مدى التيبس والتشبث بالمكان.

ركبت سيارة الأجرة فى الصباح. الضباب يحوم على الشوارع الخالية، وحس بالسكينة والخدر يحيط بالبنايات. نزلت فى ساحة المحطة. صعدت إلى رصيف القطار. جلست أقرأ فى صحيفة اليوم عن افتتاح مصانع وكبارى، وعن معدلات النمو الاقتصادى، وأفكر أن الأحداث السياسية هى نوع من قشور السمك يمكن جليها عن جسد السمكة دون أن تؤثر فى الجوهر. بقى على القطار عشر دقائق، يزداد الاضطراب، وتزداد الحيرة من تفسيره، حتى لاح لى أننى أشبه الرجل العجوز فى فيلم "شوشنك" الذى كان يربى غرابًا فى المكتبة ويمر على المساجين كل مساء بعربة مليئة بالكتب. قضى فى السجن خمسة وعشرين عامًا هادئًا وعندما آن أوان الخروج، احتجر أحد المساجين رهينة وكاد أن يذبحه بمطواه، كان خائفًا من الخروج إلى عالم لم يعرفه بعد أن قضى كل تلك المدة بين جدران السجن. يوم الخروج مشى مضطربا فى الشارع، تكاد السيارات أن تدهسه، فلم يعتد

fb/mashro3pdf

تلك السريعة واللهاث. لم يستطع أن يتآلف مع العالم بعد السجن فشنق نفسه فى غرفته.

قضيت طول الرحلة خائفًا من تلك القصة، كأنها تكشف لى سبب اضطرابى وطريقة الخلاص منه، وعندما نزلت من القطار، طمأنت نفسى قائلاً: أنا جبان لا تنفع معى فكرة الانتحار، ثم إن الموضوع أبسط من ذلك، فلا يمكن أن أشبه حياتى بحياة سجين فى شوشانك. أنجزت مشوارى بسهولة. تعاطف الموظفون مع شيخوختى واستخرجت شهادات ابنى، وفى الظهيرة كنت أجلس على رصيف المحطة فى الجهة الأخرى من مدينتى، أقرأ مرة أخرى فى الصحيفة. فى تلك اللحظة اكتشفت خوفًا وتوترًا فى أعضائى، كأن الرجوع أيضًا يثير نفس المخاوف التى يثيرها السفر، كأن مشاعرى ترد على أفكار الصباح. جلست حائرًا، غير قادر على الفهم. هذه المرة كنت أكثر حزنًا من الصباح، وأنا أتمنى ألا يأتى القطار، وتستمر لحظة جلوس رجل عجوز على رصيف المحطة محدقا فى الجريدة إلى الأبد. لماذا لم يخلق الله لحظات مستديمة؟ لماذا لابد أن نعبر الحياة المتحولة المدوخة تلك، حتى نتيبس فى الأبد؟ لماذا يجب أن نفقد حياتنا حتى ينال كائن مثلى هذا الجلوس الدائم فى لحظة واحدة؟ كانت أفكارى معتمة وكئيبة فى هذا اليوم. ركبت القطار كالمنوم، متمنيًا أن يكون تفسير الصباح على خشونته قد استمر.

fb/mashro3pdf

رأس إنسان

حلم الليلة الماضية كان مؤرقًا. الرأس طارت فى الهواء ثم استقرت على الرمل. صوت الطائرات يرج الفضاء. صحى خائفا أن تكون السماء قد تحطمت، وانكشف الكون خلفها. فى الصباح مشى إلى المقهى كما اعتاد. الشمس تنير الميدان. الساعة ترن رنينًا مجوفًا. ترك الجريدة مفتوحة أمامه. مازال الحلم يرافقه محتفظًا بحس مقبض. مر زمن طويل على تلك الواقعة. لا تموت الأزمان كما يقولون. نحن نموت وتبقى هى. كان الحلم يشير إلى معركة فى العين السخنة أثناء حرب الاستنزاف. مدفع مضاد للطائرات. الهجوم يأتى من الشرق. الجو ينبئ به قبل أن تدخل الطائرات ساحة البحر الزرقاء. الصمت يلمع. توتر يسرى فى الجو ورائحة مخاوف غامضة، لحظة يظهر فيها الحد الفاصل بين الحياة والموت، لامعا مثل شفرة الموسي. جاءت الطائرات مسرعة هذه المرة وعلى ارتفاع منخفض. هرولة باتجاه المدافع،

fb/mashro3pdf

وصخب، وزعيق قائد الكتيبة، "محسن عبدالرحمن" على المدفع المجاور، يصيح بشيء، أو يطلب شيئًا، لكنه كان مشغولاً بإدارة مفتاح فى المدفع. صوت الطائرات لا يمكّنه من سماع نداء "محسن" عليه، ورغم ذلك أدرك أن الصوت قد صمت فجأة، ربما فى منتصف كلمة.

استمرت حياته هادئة، موظفًا فى أرشيف الإدارة التعليمية، لكنه كلما تذكر هذا اليوم، يلوم نفسه لأنه نظر تجاه "محسن" ليتأكد من صدق حدسه بأنه كان يتكلم وصمت فجأة. لم يكن عليه أن يفعل. كان جسد زميله على مقعده فوق المدفع، يحرك قدميه، كأنه يركب دراجة، ورأسه هناك على مسافة قصيرة بالقرب من علبة سالمون فارغة.

***

fb/mashro3pdf

يوم السبت

اتصلت "سميرة" يوم الثلاثاء وأخبرت "منى" أن "خالد" زوج بنتها "سوزان"، سوف يعود من ليبيا يوم السبت، وهى خائفة على البنات. ردت "منى" بأن عليها أن تجمد قلبها، وتتصل بأمه وإخوته، وتقول لهم إن عليه أن يؤجر شقة ليعيش مع زوجته، حتى لو كان ما سيقضيه فى مصر عشرة أيام. لن يعيش مرة أخرى فى شقة "سميرة" مع بناتها الأربعة.

كانت "سميرة" تفكر فى البنات، فما حدث من خالد قبل سفره إلى ليبيا يميتها من الخوف. كان الولد مخدرًا طول الوقت، وقد هرب من المصحة التى تكلفت "سوزان" بإيداعه فيها، قائلة لأمها: "جوزى يا ماما ولازم أقف جنبه". يومها اتصلت بالسائق الذى يسافر بهم مشاوير خارج المدينة، وأخبرته بأن المشوار خاص جدًا، وأوصته أن يكتم السر، ولا يتحدث أمام أى مخلوق أنها أخذت زوجها ليعالج فى مصحة

fb/mashro3pdf

فى مدينة أكتوبر. رجعت "سوزان" تشعر بالفخر لأنها لم تتخل عن زوجها. لكن العلاج الذى استمر عدة أشهر لم يفلح، فقد عاد خالد ليقيم فى شقة حماته، ويتناول المخدرات مرة أخرى.

بمرور الوقت خرجت تصرفاته عن السيطرة، عندما بدأ يتحرش بالبنات، وينظر نظرة غريبة إلى "نهى" أخت زوجته الصغيرة التى لاتزال فى ثالثة إعدادى. ذات ليلة انفجر الوضع، فقد تسلل خالد إلى غرفة "نهى" وهى نائمة وأراد أن ينام معها. قامت البنت من النوم صارخة، وأثارت الرعب فى الشقة. فى البداية لم تفهم "سميرة" الأمر، وكل ما كانت تخشاه، أن يخرج صراخ البنت من النافذة ويسمعه الجيران، لكنها نست ذلك تحت تأثير الرعب، الذى أحدثته البنت. فقد راحت تجرى فى أنحاء الشقة وتصرخ بلا انقطاع، ولم تتوقف إلا عندما حملتها أمها فى حضنها.

لم يفارق المنظر خيال "سميرة"، وقالت لمنى إنها شعرت بأن الأرض تهتز تحت قدميها عندما رأت زوج ابنتها يقف فى غرفة البنات يرفع بنطلون الترينج لكى يغطى نفسه، غير مدرك لما فعل. كان منظره غريبًا ينظر إلى الوجوه نظرة فارغة. قالت لمنى إنه ليس "خالد" الذى جاء من ليبيا يخطب "سوزان" منذ خمسة أعوام. كان شابًا مليحًا، أمه مصرية وأبوه ليبى يعمل فى منصب وزارى مهم. وطغى فرح سميرة

fb/mashro3pdf

به على كل شيء، عندما تعامل بأخوة مع البنات، وشعرت بأنها قد وجدت أخيرًا أخا البنات الذى داخت من أجل إنجابه.

ظنت أن الأمر انتهى على هذا النحو، لكن فى الصباح استبدت بنهى حالة عصبية وراحت تصرخ بلا انقطاع حتى خافت "سميرة" من أن الدنيا كلها قد عرفت أن زوج ابنتها كان يريد أن ينام مع بنتها الصغيرة. لم تتحمل الرعب فجلست فى الصالة، وتركت حصصها فى المدرسة واعتذرت للوكيلة فلا يمكن أن تتركه وحده مع البنات. اتصلت بزوجها فى السعودية وأخبرته بما حدث، وأنها وحدها ولا تعرف كيف تتصرف، فقال لها أن تتصل بأهله. فى الظهيرة جاء زوج أخته وأخذه فى السيارة، وهو مازال ينظر تلك النظرة الفارغة المتسائلة. بعد أسبوع أخبر "سوزان" بأنه سيسافر إلى ليبيا، وعندما تستقر أوضاعه سوف يتصل بها لكى تسافر له هى وبنتها. ارتاحت "سميرة" عدة أشهر، حتى عرفت أنه سيأتى يوم السبت.

يوم الأربعاء اتصلت بمنى وقالت إنها خائفة. "نهى" تدخل الحمام كل ساعة، منذ أن عرفت أن "خالد" سوف يأتى يوم السبت. أخبرتها منى مرة أخرى بأنها لابد أن تتصل بزوجها، لينزل من السعودية. لا يجب أن تبقى هى وحدها تحمل الحمل، وهو هناك خاطط يده فى الماء البارد. قالت سميرة

fb/mashro3pdf

إن البنات خائفات، لم يُفتح التليفزيون منذ عدة أيام. و"سوزان" تجلس فى البلكونة ببنتها الصغيرة التى لا تكف عن البكاء، وأنها أصبحت عاجزة عن التصرف، ولم يعد أمامها غير أن تأخذ البنات معها يوم السبت إلى المدرسة. صرخت منى: "إنت اتهبلتى. تدخلى المدرسة بأربع بنات، واحدة منهم شايلة بنت على كتفها". قالت "سميرة" وقد فقدت السيطرة على نفسها: "أوديهم شقة ماما وأقفل عليهم بالمفتاح". قالت منى: "اسمعى! يوم السبت تاخدى إجازة عارضة، وتقعدى فى البيت ولما ييجى ما تفتحيش الباب، وتقولى له روح عند أهلك". قالت سميرة: "يمكن يعمل فضيحة. أنت عارفة إنه ماعدش دارى بنفسه، والناس تقول إيه؟ وسيرة البنات، ومستقبلهم؟" قالت منى: "اسمعى! أنا هحجز فى قطر سبعة الصبح يوم السبت وأكون عندك وإن عمل مشكلة آنا هتصدى له بنفسى، وهجيب له البوليس، وفضيحة بفضيحة، والناس بتنسى مع الزمن".

يوم الخميس أخبرت "منى" أن "نهى"، لم تعد تأكل. وجهها أصفر، ترقد على السرير وتضم ساقيها إلى بطنها، وتميل برأسها، حتى يتكور جسدها، تنام لحظات قليلة، وأثناء النوم تصدر صوتًا مثل مواء القطط. مواء حقيقى، كأنها قد تحولت إلى قطة. مواء يجعل الدم يتجمد فى العروق، و"سوزان" تنظر إلى إخوتها البنات، بغرابة، وتترك بنتها

fb/mashro3pdf

الصغيرة تبكى طول الوقت، وعندما أحدثها تقول: "جوزى ياماما، أرميه فى الشارع؟".

يوم الجمعة اتصلت سميرة وقالت لمنى إنها يجب أن تأتى الآن من الإسكندرية لأن "نهى" أغمى عليها ونُقلت إلى المستشفى وأنها لا تعرف ماذا تفعل.

***

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

شرفة الطيور

تبدأ الأصوات خافتة فى الصباح. أصوات رفيعة حادة النبرة، ثم نقر مجوف يرن بقوة، على ورق كرتون. أحيانًا يقطع الصخب صرخات صغيرة متقطعة، ثم رفرفرة أجنحة. على سياج الشرفة قصارى بها صبار نشف وتدلت سيقانه. الشقة مهجورة منذ سنوات. كل يوم أسمع تلك الأصوات، أطل من نافذة المطبخ، أراقب العصافير وعدد من حمام الأبراج القريبة، وبعض اليمام البرى. ذات يوم رأيت غرابًا أسود يقف شامخًا على سياج الشرفة. كانت تعيش هنا أسرة صاخبة مثل الطيور التى سكنت الشرفة. كنت أسمع الأم تصرخ فى ابنها "يا هيمة يا واد يا هيمة". كان صوتها به نبرة رفيعة حادة تعطى حسًا بالنواح حتى عندما تهنئ أصحابها وأقاربها بالعيد. لم أتمكن من التفريق بين الحزن والفرح فى نبرة صوتها، ورغم ذلك كان صوتًا غنيًا، ولقد تخيلت أنه كان يمكنها أن تغنى مثل نجاة الصغيرة، عندما سمعت ابنتها تغنى

fb/mashro3pdf

بنفس الصوت ذات يوم. كان نداؤها على أبنائها لا يتوقف طول النهار. سمعت زوجها يقول بصوت مسموع وغاضب: "والله يا منال ما عدت أقول لك كلمة تانى، انت ولية ما يتبلش فى بقك فولة"، وسمعت صرختها، ربما ضربها فى هذا اليوم. لا أعرف ماذا حدث لتلك الأسرة. لقد سافرت عدة أسابيع وعندما عدت لم يكن هناك أحد يسكن تلك الشقة. راقبت الدولاب المغطى بملاءة سرير تمزقت من الغبار والمطر وتقلبات الجو، وبانت الكتب المدرسية المرصوصة حيث وقف فوقها طائر غريب له أجنحة بلون التركواز. صوته صادح فى هذا الصباح فى أواخر الشتاء، يقف هناك فى إحدى خانات الدولاب فوق الكتب ينظر تجاهى مباشرة بعدوانية.

***

fb/mashro3pdf

حاجب المحكمة القديمة

كان جدى يعمل حاجبًا فى المحكمة القديمة. فى الصباح يرتدى البدلة الكاكى ذات الزرايز اللامعة. يحمل دائمًا فى جيبه، علبه صغيرة مثل علب النشوق، فيها مسحوق ناعم يشبه الرصاص. فى الليل يدعك به الزرايز المعدنية حتى تبرق. لحظة ارتدائه للبدلة فى الصباح، لحظة مقدسة. كل شىء يصمت. تترك جدتى ما فى يدها من أعمال، وتقف مشمرة الذراعين بجانب الكنبة. تنتظر أن يفرغ من ختم صلاة الصبح، وخلع ثياب البيت. يقف متصلبًا نحيلاً فى الفانلة والكلسون. يبدأ الطقس، بنظام صارم، تناوله البنطلون فى البداية، ثم السترة. ثم المنديل القماش يدسه فى الجيب الأيمن، يجلس بضع ثوان على الكنبة ليرتدى الشراب، وينتصب مرة أخرى. تمد يدها بعود التعناع يضعه فوق رأسه قبل أن يرتدى الطربوش الذى أزالت الفرشاة ما علق به من غبار اليوم السابق.

fb/mashro3pdf

أحيانًا كان يصحبنى إلى المحكمة. أدخل متهيبًا ذلك المبنى القديم. الطرقات واسعة، النوافذ عالية يغمرها ضوء الشمس. حركة الناس وحديثهم يوحى بشىء متوتر وخطير. أصوات أقدامهم لها خبط هش مجوف على الأرضيات الخشبية. أحتار أمام الجهامة التى تطل من وجوه الفلاحين، وذلك الاستعطاف الذى يظهر فى ملامحهم، وعندما أسمعهم يحيون جدى، أشعر بشىء من الطمأنينة.

يأخذ جدى مكانه العالى على كرسى بالقرب من باب يقود إلى غرفة المداولة. أراقبه من مكانى فى نهاية قاعة المحكمة. ساكنًا منفصلاً عن كل ما حوله. يخيل إلى أنه لم يعد يعرفنى، وأنه غير موجود هنا. يظل متجهمًا طول الوقت، خاصة عندما يفتح الباب الصغير ويقف منتصبًا. فى تلك اللحظة أشعر بأنه قد مُسخ وتحول إلى تمثال من الصخر. يسود صمت متوتر، يشبه صمت الصباح فى البيت، لكنه أقوى وأثقل وأكثر خطورة. يقف كل من فى القاعة ويدوى صوته صاعقًا:

"محكمة!".

لم أكن أخاف أى شىء فى زيارتى للمحكمة غير تلك اللحظة التى أفقد فيها ارتباطى بجدى، وأشعر بالدنيا صارمة وغريبة. يجلس كل من فى القاعة. القضاة فوق المنصة بالأردية السوداء والأوشحة، كأنهم مخلوقات من

fb/mashro3pdf

جنس آخر، تنظر من أعلى إلى بنى الإنسان. يبدأ المحامون بالاقتراب من المنصة بحذر فى أرواب سوداء طويلة تجعلهم أيضا مثل الأشباح. لحظة ثقيلة يتبدل فيها العالم ويتحول إلى مسرح عرائس.

ذهبت عدة مرات مع جدى إلى المحكمة. حضرت تلك اللحظة المهيبة. كل مرة يزيد يقينى بأن الناس يُمسخون إلى كائنات أخرى، عندما ينطق جدى الكلمة الصاعقة التى تدوى فى أركان المبنى، وتثير ذبذبة فى زجاج النوافذ. حاولت الوقوف فوق السرير وتقليد صوته وهو ينطلق بالكلمة المهولة: "محكمة"، لكن صوتى لم يكن له تلك الخطورة والجدية، مما دعانى للظن بأن جدى يتحول إلى كائن آخر. فى تلك اللحظة. طول الجلسة يقف متصلبًا بجوار الباب، معزولاً بعيدًا، فأنشغل بمراقبة العصافير تقف على سياج الشرفة، تحلق فى فضاء القاعة لحظة قصيرة، ثم تخرج مسرعة.

مرة أخرى تصمت القاعة، بعد نقاشات وشد وجذب وزعيق وخطب، كأن الدنيا قد خلت من الهواء، عندما يقول القاضى: "حكمت المحكمة حضوريا...." تلك اللحظة أيضًا مخيفة، إنها أكثر اللحظات جهامة. فى الغالب تضج القاعة بالصراخ والعويل، لكن فى بعض الأحيان تنطلق زغرودة ترفرف فوق الرءوس. فى تلك اللحظة يذهب المسخ عن

fb/mashro3pdf

الناس، ويعودون إلى أنفسهم. أشعر بالقاعة وقد تحولت مرة أخرى إلى مكان دنيوى، يمكننى أن أتحرك دون أن أقع فى السحر.

لم يكن جدى يوافق أن أصحبه إلى المحكمة إلا فى أوقات يحددها، فهو على طيبته، أحيانًا "يحرن". كما تقول جدتى. كنت فخورًا بتلك المكانة التى يعطيها رجال الحتة لجدى، وتلك المودة التى يعامله بها الناس بعد "الجلسة". يتحلقون حوله، ويمدون أيديهم بقروش يدسونها فى جيبه. أخبرنى أن من يحصل على البراءة يعطيه "حَلَوان". يرص القروش فى صفوف، كل عشرة قروش فى ورقة مقواه، يضعها فى جيب السترة.

عندما يعود من المحكمة تقف جدتى فى الصالة. تقول بحزم:

"هات الفلوس يا محمد"

يبدو عليه الارتباك، وألحظ مدى خوفه من جدتى. يبدأ فى اللجلجة وهو يخرج من جيبه صفًا واحدًا من القروش يضعه فى كفها.

تقول بحزم واقفة مكانها، تسد عليه الطريق:

"الباقى."

"والله ما فيه باقى. أحكام البراءة قليلة".

fb/mashro3pdf

يقسم بأغلظ الأيمان إن القضاة أصبحت قلوبهم مثل الصخر، أحكام أحكام، لا يرحمون، والبراءة قليلة هذه الأيام، ويسرع فى عبور الصالة وجدتى تسرع وراءه حتى غرفة النوم. تظل تناكف فيه حتى تأخذ ما فى جيبه. لكنه كان حويطًا، دائمًا ما يبقى شيئًا لسهراته، عندما يذهب إلى محل "شمحوط" فى الحارة المواجهة لسينما مصر، ويشترى "ربع جن"، ويجلس هناك فى قاع المحل مع صديقه، يشرب.

خرج جدى إلى المعاش. لم يستطع أن يتوقف عن العمل. كان ارتداء الملابس فى الصباح طقسًا من الصعب التخلص منه. ربما كان أهم ما فى حياته، ليس نطقه لفظ "المحكمة" المهيب كما ظننت، بل وقوف زوجته بين يديه فى الصباح تقدم له قطع الملابس بخشوع. ربما كانت البدلة نفسها والزراير اللامعة مثل الذهب. شيئا لا يمكنه الاستغناء عنه. لا يمكنه قضاء فترة الصباح فى البيت، فاستمر بعد المعاش، يرتدى البدلة بنفس الطقوس، ويذهب إلى المحكمة. أتاحت له علاقته بالقضاة والمحامين والكتبة أن يتظاهر بأنه لم يخرج إلى المعاش، وأن يتواطؤا معه، على الأقل أثناء وجوده. فيقوم أحيانًا بأعمال صغيرة مثل نقل مكاتبات بين المكاتب، حمل حقيبة قاض، أو مساعدة فى نسخ مذكرة، ولما شعر بجو من السخرية الخفية، انتقل بمساعداته المجانية إلى رصيف المحكمة، فكان يجلس بجوار أحد الكتبة على

fb/mashro3pdf

الرصيف مؤملاً أن يأخذ المنضدة الخاصة به ذات يوم. لكن الكتبة كانوا يسخرون منه، حتى عرض عليه أحد المحامين أن يعمل فى نقش الأختام، ساعده فى شراء العدة، وجلب منضدة خشبية بجوار السور الحديدى الخارجى للمحكمة وعدة النقش وبدأ العمل الجديد. حاول أن يضفى على نقش الأختام تلك المهابة التى كانت له عندما كان يبدأ الجلسة، ويقول إنه أيضًا يعمل أختاما تمهر العقود والوثائق، لكنه كان يعرف أن ذلك غير صحيح وأنه خسر إلى الأبد تلك الخطورة التى كانت له. تلك الحظوة التى لم يتيقظ لفتنتها إلا بعد أن تركها.

فى الصباح يبدو متصلبًا أكثر من المعتاد، وهو يرتدى الملابس، ويبالغ فى النظر إلى نفسه وفى ترك جدتى تقف أمامه وقتًا طويلاً. كانت صبورة فى البداية، لكنها زعقت فيه ذات يوم: "خلص يا محمد". بدأت مرات ذهابه إلى محل "شمحوط" تزداد يوما بعد يوم، وكان الدخل يتناقص، فلم تعد تهتم بأن تقف أمامه أثناء ارتداء الملابس فى الصباح. تقول باختصار: "البدلة عندك على الكنبة". فى المساء ينزل وقد غدا أكثر شرودًا، ثم أصبح يسهر يوميًا فى محل "شمحوط"، ولا يعطى لجدتى أى نقود. يقف كتلميذ ويقول: "فتشينى". يوم خطوبة خالتى الصغيرة بحثوا عنه فلم يجدوه. ارتدت جدتى ثيابها السوداء، ووقفت على باب محل شمحوط وقالت بأدب ورفق: "المأذون مستنى يا سى محمد". سار

fb/mashro3pdf

بجوارها صامتًا يحاول أن يسيطر على ترنحه. لم تمض على تلك الواقعة غير أسابيع حتى توفى جدى خاليًا من البريق، كأنه بدلة قديمة تهرأ نسيجها.

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

تريزا

"تريزا" لها رائحة خاصة. نوع من الروائح لم يشمه "مصطفى" فى حضور أية امرأة أخرى. رائحة زهور لا يعرفها، رائحة عطور نباتية، يقول ذلك لكى يخرج من إحراج السؤال حول كيفية معرفته لرائحة لم يشمها. يقول بحسم متعبًا من عدم قدرة أحد على فهمه: "رائحة نباتات". وأمام الإصرار على تحديد نوع النبات، يقول متخلصًا من الأمر بالكامل: خليط من الياسمين والعشب. أحيانًا يستمتع بتلك اللعبة ويستميت فى أن يحدد رائحة "تريزا". يتذكر أنفها الحاد الرومانى والعيون الواسعة ذات الألوان المتداخلة، وغمازتا الخدين، وليونة القبلة التى لا يمكن نسيانها. لا يمكن نسيان "تريزا"، يقول، وإن اختفت فى النسيان، رائحتها التى التصقت بتلك الأيام البعيدة سوف تهبها الحياة. ذات يوم وهو يركن السيارة فى نهاية شارع الجلاء، فى بداية الصيف، حمل الهواء طيفًا من رائحة غامضة. وجد "تريزا"

fb/mashro3pdf

قريبة منه، حتى خيل إليه أنها تسكن هنا، وكان على وشك أن يستعيد مغامرات تلك الأيام ويصعد بيتًا من البيوت القريبة ويسأل عن أى شىء كما كان يفعل. تلك الطريقة التى كان يطارد بها فتياته. تجده الفتاة أمامها عندما تفتح باب الشقة، ترتبك ولا تعرف كيف تتصرف، يبتسم لها مشجعًا، ويطلب منها ميعادًا لكى ينزل. إذا فتحت أمها الباب، أو أحد أقاربها، يسأل عن شقة الأستاذ ناصر مدرس الرياضيات، أو الأستاذ محب تادرس مدرس اللغة الإنجليزية. أى شىء، ويبدى الدهشة والطيبة التى تظهر على وجه شخص تائه، متعب من العناوين الملخبطة. ينزل السلم، محاولاً أن يدارى اختلاسه النظر إلى الداخل. لا تكون هذه هى نهاية المغامرة، لابد أن يبحث عن طريقة أخرى يقابل بها الفتاة. من حسن حظه أن "تريزا" هى التى فتحت الباب، كان شعرها منسدلاً على جانبى وجهها. عندما رأته وقفت "مبلمة". رفعت كفها إلى فمها وظهر الرعب فى ملامحها. قال: "بوسة بوسة واحدة وأنزل". قالت وهى تحاول إغلاق الباب: "بعدين بعدين". سمعها ترد على أمها التى سألتها عمن بالباب، وسمع صوتها الرنان الذى كان يشيع فى جسده الرعشة مثل رائحتها: "واحد بيسأل عن شقة الأستاذ سمير."

لم تسمح "تريزا" للأمور بينهما أن تتطور إلى أكثر من قبلة. قبلة على سبيل التجربة. كانت تشهق وتنبه نفسها. لم تسمح لأصابعه التى تشبه الديدان -كما وصفتها- أن تتسلل

fb/mashro3pdf

تحت الملابس. لم تجد معها أية محاولة. القبلة دليل الحب النقى. كيف يحتفظ بكل هذا الحب لتريزا، وفى نفس الوقت يكاد يموت من أن "ريم" هجرته. دخلت "تريزا" كلية الفنون الجميلة. قابلها بصحبة شاب وسيم. عرفتهما: "مصطفى"، ثم أشارت إلى الشاب: "ماهر خطيبى". كانت جادة، تنظر بحب إلى خطيبها. بعد أن تبادلا الأخبار، تركهما بسرعة وركب سيارته. قابلها بعد ذلك بسنوات، تعمل مدرسة رسم فى المدرسة الإعدادية القريبة من بيته. أوقفته قائلة وهى تضحك: "استنى يا جبان". انتابته نوبة من الضحك. كانت تحمل بنتها على صدرها. قالت وهى تشير إلى الطفلة: "إيرينى". ضحك: "ماذا يعنى،؟" قالت: "السلام". قال: "اختارى اسم مفهوم من الأسماء الحديثة، رشا، سالى، لوجى". ضحكت وسألته عن أحواله. قال إن حياته ملخبطة. هجرته زوجته، وينوى أن يبيع "الشادر" من أجل أن يلاحق على القضايا التى رفعتها ضده زوجة عمه. حاول أن يخرج من ذلك النكد بدعابة:

"خطايا الآباء يدفعها الأبناء".

أشارت إليه وهى تضحك:

"خطايا الأبناء يسددها مال الأباء".

ياه يا تريزا. كيف استطاعت أن تلخص الموضوع؟

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الفجوة التى تركها وائل

اضطربت أحوال الأستاذ "عبدالرحمن" ناظر مدرسة السيدة خديجة بعد خروجه على المعاش بعدة أعوام. كان الخوف من سن المعاش قد تبدد تحت انشغاله بحفيده وائل، الذى تعودَ أن يقضى معه أغلب فترات النهار. يصحبه إلى مستشفى التأمين الصحى، وصلاة الجمعة فى مسجد المنشاوى، ويأخذه معه للقاء الأصحاب بعد صلاة الجمعة فى "قهوتى". طابت الحياة فى تلك السنوات التى خاف منها طويلاً. لكن "وائل" أصابته حمى مفاجئة. تدهورت حالته بسرعة، لم يكن الأستاذ قادرًا على مجاراتها نفسيًا، وعند اللحظة الفاصلة بين الموت والحياة، لحظة التأكد من أن الولد لم يعد موجودًا برقت عيناه ونظر من النافذة فى ذهول. عرفت "سمية" أن شيئًا حدث فى كيان أبيها. فى الجنازة كان يسير صامتا، لا يسمع مواساة زملاء العمل والأقارب، كالمنوم، يرى الحياة تعبر خياله. مئات الصور،

fb/mashro3pdf

آلاف طوابير الصباح فى حوش المدرسة وتحيات للعلم وزواج الصبيان وسفرهم ثم زواج البنات ورحيل المرحومة. كل ذلك كان هشًا لا يمكن الوثوق فى أنه قد حدث. أمر واحد لا يمكن الإفلات من ثقله: الفجوة التى تركها وائل.

رواد الزاوية الصغيرة على ناصية شارع الشيتى بدأوا يعرفونه. على غير توقع من "سمية" ومن كل معارفه، راح يصلى الفجر كل يوم. فى عز البرد يرتدى العباءة وينزل السلم متمهلاً. تنصت ابنته إلى رنين جنزير الباب ثم تلاشى الخطوات فى صمت الشارع. رغم ذلك فقد ظل زيغ نظرته، يثير قلق سمية، وصمته وهو يترك حبات المسبحة تنفلت من بين أصابعه بعصبية، وعندما ترك لحيته البيضاء تنمو، لم تطلب منه أن يحلق ذقنه. لم تكن تعرف ما يدور فى خواطره. حدثت أختها الكبيرة فى القاهرة وأخبرتها بأنها قلقة على أبيها. قالت الأخت الكبيرة: "خذى بالك من نفسك. يكفى ما أصابك، بابا شديد سوف يعبر الأزمة". أثارت تلك المكالمة قلق سمية أكثر مما طمأنتها، وبدون وعى وجدت نفسها تراقب ما حدث له من تحول. كان جسده قد أصبح نحيلاً، خفيفًا يمكن أن تطيره نسمة. بعد فترة لاحظت أنه انقطع عن صلاة الفجر، رغم أن الصيف قد دخل، وأنه يبقى نائمًا حتى الظهيرة. قالت إنه مريض، وظلت حائرة فى تفسير حالته، حتى جاء اليوم الذى طرق فيه الشيخ دسوقى إمام

fb/mashro3pdf

الزاوية البيت، وبجانبه أبوها مغبرا بالتراب ومهوش الشعر والذقن. عرفت فى ذلك اليوم ما كان يحدث فى الصمت.

قابله الشيخ دسوقى يسير وحيداً خلف جسر السكة الحديد فى طريق المقابر. كان ذلك قبل المغرب بقليل. أوقفه الشيخ وسأله عن وجهته. قال غاضبًا: "إنت مالك يا أخى". ظهرت العصبية التى وسمت تصرفاته أيام ما كان ناظرًا. قال الشيخ دسوقى لسميه إنه شك فى الأمر، خاصة أنه "الوالد" كان غاضبًا ومتعجلاً، فحاول أن يطيل الحوار حتى يعرف وجهته. سأله عن السبب الذى منعه من صلاة الفجر. قال بغضب إنه لن يصلى الفجر، ولن يصلى ركعة فى حياته بعد ذلك. تأكد الشيخ دسوقى من الخلل الذى أصاب الأستاذ، عندما راح يحكى دون أن يطلب منه، بأن المرسال قد وعده فى الحلم، إن صام ثلاثين يومًا وإن صلى الفجر تسعين يومًا فسوف يعيد إليه وائل. وقال بثقة: لقد نفذت ما أخبرنى به المرسال، أما "هو" فلم ينفذ وعده. واليوم أنا ذاهب بنفسى لأحضر الولد.

لم يكن الشيخ دسوقى قادرًا على تحمل منظر "الأستاذ" وهو واقف فى المقبرة، يحفر بقطعة من الخشب على شكل جاروف، فهذه المواقف ترعبه، وعرف بحسه أنه لا يجب أن يمنعه، لأن المنع سيأتى بنتيجة عكسية. تركه حتى تعب، وجلس بجوار الحائط وقد تعفر جلبابه الأبيض، وسال العرق

fb/mashro3pdf

من جبهته على جانبى وجهه وتسرب إلى لحيته البيضاء. تجرأ وسأله: "هيا نستريح قليلاً فى البيت ثم نعود". وافقه الأستاذ دون كلمة. أوقف سيارة أجرة وأوصله إلى البيت.

فى ذلك اليوم، لم يتحدث "الأستاذ" مع أحد، كان يوجه حديثه إلى طيف. يلومه ويعاتبه على كونه لم يف بالعهد، وبهذا فإن كل ما يؤمن به الناس ما هو إلا "ترّهات". انقلب جو البيت من الحزن إلى الرعب. جاء ابنه فى طائرة الصباح من الإمارات، وجاءت ابنته الكبيرة من القاهرة، والتمت العائلة. استمرت الحيرة عدة أيام. استغرقوا فى نقاشات طويلة حول إرساله إلى مصحة فى القاهرة أم إدخاله مصحة هنا، تحت إشراف طبيب من زملاء ابنه، خاصة وأنه عاد لعناده وأن التعامل معه فى البيت سيكون صعبًا، فلم يكف لحظة واحدة، عندما يفيق من الإغفاءة التى تجبره عليها المهدئات الثقيلة، عن مخاطبة الطيف الذى يقف بالقرب من سريره، يقارعه الحجة بالحجة، ويثبت له أن كل ما يظنه الناس حقائق علوية ما هو إلا أوهام، ساعة التجربة الحقة، يتيقن المرء من زيفها.

***

fb/mashro3pdf

كائنات ضالة

يمر من شارعنا شحاذ ينادى بلسان ثقيل معوج:

"جعان يا ناس، جعان يا خلق، جعاااااااااااااااااااان"

يعكر صفو صباحات الجمعة، فهذا الصوت الخشن المعوج وكلمة الجوع الجارحة تثير القلق فى الشرفات حيث يقف بعض الموظفين يشربون الشاى ويدخنون، ويثير المصمصة فى المطابخ التى ينسل منها خافتا صوت الشيخ الحصرى يرتل سورة الكهف. تحول الأمر إلى مزحة عندما قال أحدهم هذا الرجل لا يمر إلا يوم الإجازات كأنه يعرف أن أغلب سكان الشارع من الموظفين.

فى صباح يوم إجازة سمع الناس صوت "جعفر" يصيح من البلكونة: "امش يا له من هنا". رد عليه الصوت الأجش: جعاااااااااااااااااااااااان. صاح "جعفر" بصوت أعلى: "امش يا نصاب يا ابن ... من هنا". وترك البلكونة وخرج من

fb/mashro3pdf

باب البيت حافيا، والشحاذ يسرع بخطوته العرجاء فى قلب الشارع مستندا على عصاة معوجة. طارده "جعفر" حتى نهاية الشارع. توقف مرة أو مرتين فى طريق عودته إلى بيته، يشرح السبب قائلاً لمن يسأله: إن الرجل يستعبط وإنه أغنى منى ومنك.

تقريبًا لا يعيش "جعفر" فى بيته، يقضى النهار فى الشارع، منتظرًا عودة العربية النقل، ويسهر طول الليل مع حارس الجراج على الناصية. امتدت هذه العلاقة سنوات طويلة. لم يكن دافعها أن "جعفر" يركن عربية النقل بجانب الجراج بدون أجر، بل صداقة بدأت أيام الاضطراب الذى حدث فى حياته بعد عودته من الجيش عام 1975. لقد عاد مختلاً قليلاً، يمسك سكينًا ويطوح بها فى الهواء، ويقف أمام باب البيت مانعا أباه من الدخول، طالبًا أن يكتب العربية النقل باسمه، فهو لن يسوق ولن يتشحطط على الطرق، لن يعمل أى شىء. سوف يعيش من ريع العربية ويسكن فى البيت المملوك له. كان يريد أن يعيش حياة خالية بعد سنوات الجيش التى أطارت برجًا من مخه. لكن المشكلة التى جعلته لا يطيق البيت ويلجأ إلى الجراج هى شكه فى نسب ابنه الكبير. لم يكن الناس فى الشارع يحتاجون إلى رواية حارس الجراج لكى يعرفوا أن "جعفر" يرى أن الولد ليس من صلبه وأن ملامح أخيه تطل من وجه ابنه: فقد عاينوا ذلك اليوم

fb/mashro3pdf

المشهود. كان "جعفر" يصيح: "اخرجى من بيتى يامرة يا بنت ....". ومن البلكونة أسقط الملابس الداخلية. وامرأته تقف صامتة أمام البيت، ترى القمصان الحمراء والسوداء والسراويل تطير وتسقط على الرصيف، يومها ركبت تاكسى ورجعت إلى بيت أبيها.

فى أول رمضان يطوف بالشارع، رجل قصير القامة ممتلئ الجسد، يطرق الأبواب ويقول إنه كان بطلاً لرفع الأثقال، فى النادى الرياضى، وأنه لولا الحادث الذى تعرض له -ويكشف عن ساق تشقها خطوط بلون مختلف عن بقية الجلد، مجوفة تدل على عمليات جراحية قديمة -لما كان هذا مصيره، ويطلب زكاة رمضان. كان يتحدث بسرعة ويحكى حكاية غامضة عن بطولات أنجزها فى رفع الأثقال، وأن كل عمال النادى مازالوا يعرفونه: "اسألوا حتى المستشار محمود الجبلى". لم تعجب "جعفر" طريقته فى الشحاتة وفرض نفسه على البيوت فطرده من الشارع، وقال له إن طرقت الأبواب مرة أخرى، سوف أعلقك على عمود النور.

طارد "جعفر" حرامى غسيل كان ينتش البنطلونات الجديدة بخطاف، وعامل نظافة كان يسرق الجزم من أمام أبواب الشقق ويبيعها فى سوق الاثنين وغير ذلك من الناس، لكنه فشل فى طرد الرجل العجوز.

fb/mashro3pdf

كان يأتى كل جمعة. ويجلس فى بير سلم البيت القديم المجاور للجراج، كأنه فى بيته. قد يتخلف أحيانًا، لكن مع صباح الجمعة كانت كل واحدة من سكان البيت تتوقع أن تراه جالسا بجانب عدادات المياه راكنًا ظهره للحائط مغمض العينين كأنه نائم، وفى يده سيجارة لم تشتعل. اعتاد الناس وجوده بمرور الوقت، واطمأنوا أنه غير مؤذ، فلم يكن يتحدث، أو ينظر تجاه النازل من البيت أو المار فى الشارع. كان يرتدى حذاء قديمًا وبنطلونًا يربطه بحزام من الجلد ويشده على وسطه حتى يتجعد كمر البنطلون. يظل جالسًا حتى العصر ثم يمضى.

حاول "جعفر" أن يعرف شيئًا عنه، أو أن يطرده لكنه فشل. فقد كان الرجل صامتا، خطواته محسوبة بدقة، يدخل الشارع من جهة محل الترزى، ثم يمضى إلى نفس البيت ويجلس نفس الجلسة. نتيجة لتلك الدقة، جاء الخاطر الذى جرى مجرى الحقائق، أن أقاربه كانوا يسكنون هذا البيت وكان هو موظفًا قديمًا، وربما بسبب الميراث جن وتاه فى الشوارع. لم ينف "جعفر" الحكاية ولم يثبتها، رغم أنه كان يجلس طويلا يتحدث إلى الرجل الذى يستمر بنفس الهيئة مغمض العينين لا يرد عليه. أصبح وجود الرجل فى بير سلم البيت القديم مألوفًا، بل إن بعضهم قد بدأ يحسن إليه. تطورت حكايته وأصبحت أكثر تحديدًا واستقر الأمر على أنه

fb/mashro3pdf

كان يسكن هنا، وبسبب الحنين يجيء ليطل على البيت الذى نشأ فيه، وإلا فلم اختار هذا البيت؟

فى العيد الكبير جاء على غير العادة يوم سبت فى الفجر. كان الترزى يسهر حتى وقت متأخر. رآه قادمًا. أعطاه سيجارة وضعها الرجل فوق أذنه ودخل البيت. فى الصباح نزل "جعفر" من بيته مسرعًا، وخاطب الترزى قائلاً: "الراجل مات". رافقه الترزى وخادم الزاوية القريبة إلى البيت القديم. كان الرجل ممدداً على درجة السلم الأخيرة، والسيجارة بين أصابعه.

كيف عرف جعفر أنه مات؟ لم يستطع أحد أن ينتزع كلمة واحدة منه، لا فى يوم الدفن ولا بعد ذلك. قضى النهار مشغولاً، يستخرج شهادة الوفاة وبعد الكفن. فتح غرفة من الطابق الأرض فى بيته، وأعطى عامل الزاوية أجر الغسل، وجاء بالنعش وحمل الرجل إلى المقابر كأنه من بقية أهله.

أخذت حكاية الرجل العجوز خاتمة مؤثرة عندما انتشر اعتقاد بأنه قد عرف ميعاد موته وجاء ليموت فى البيت الذى نشأ وتربى فيه. لم يعلق "جعفر" على تلك الحكايات. لم ينطق بكلمة عن الرجل العجوز. قالوا إنه مرعوب من الموت. يجلس فى النهار على باب محل الترزى يشرب الشاى، وعندما يعبر الطريق شخص يطلب حسنة أو يسمع بائع الروبابيكا أو غيره من البائعين ينتبه، ويدير رأسه، لكنه لا

fb/mashro3pdf

يتحدث معهم، ولا يطلب منهم الانصراف. يصمت وينظر فى الفراغ، وصمته -بالنسبة لمن يعرفونه- علامة أنه يحمل سرا لن يبوح به.

* * *

fb/mashro3pdf

خير من يمثلكم

اللافتات تهتز بعرض الشارع: "خير من يمثلكم". "اختاروا مرشحكم". كنت صغيرا، وظلت بعض الكلمات عصية على فهمى. فلم أستطع أن أفهم أن الرجل الضخم بعمامة الكبيرة، وصوته الغليظ وأنفه الذى تخيلت أن الطيور وقفت عليه أثناء نومه، وتركت فيه تلك النقر الغائرة، الذى كان يزور جدى قبل انتخابات مجلس الأمة، هو "المرشح". كما أن كلمة "التمثيل" كانت تحيلنى دائمًا إلى التمثيل فى السينما. استمرت مشكلتى حتى الآن مع تلك الألفاظ، فلا أتمكن من فهم كلمة "المرشح" التى تثير فى ذهنى معنى "الترسيب"، وكل ما يحيط بها من ألفاظ مثل "الرسوب" "بقايا الأشياء" وما ترسب منها وأصبح غير صالح للاستعمال مثل "الرماد" أو "التفل". ظل "مرشح" مجلس الأمة يذكرنى بالمرشحات التى أقيمت فى القرى فى الخمسينات، وكان مبناها عاليًا ومستديرًا من القمة كأنه كائن ضخم يلبس عمامة، كما أن

fb/mashro3pdf

التمثيل غدا مشكلة أخرى. أثناء الجامعة عندما كنا نناقش عيوب الحياة النيابية ويدعى أحدنا أن الشعب يختار نوابا ليقمعوه فى البرلمان، كنت أحول المناقشة إلى مناقشة لغوية عن معنى كلمة "التمثيل". وكيف تعنى أن شخصًا ينفذ دورًا، ليس مسئولاً عن شيء، غير إجادة الدور. كنت أسخر من الفكرة قائلاً، ما هذه الألفاظ الغريبة: "تمثيل نيابى" إنها تعنى "التمثيل" و"النيابة": تعنى أن الشعب غائب غيابًا كاملاً.

* * *

fb/mashro3pdf

التذكر

عندما يتقدم المرء فى العمر، لن يكون التذكر متاحًا. سوف يحاول أن يتذكر الأسماء بلا جدوى. عندما يقف أمامه شخص يسلم عليه بحرارة، ويتبادل معه حديثًا عن الأحوال وعن أيام قديمة، سوف يدرك يقينًا أنه يعرفه، ويحاول أن يتذكر اسمه بيأس. وبتكرار التجربة سوف يعرف حكايات صغيرة عن حياته، يحملها آخرون، سيحكونها له وهو يحاول أن يتذكر أسماءهم. فى كثير من الأحيان عندما يعبر شخص الرصيف المقابل ليسلم عليه بحرارة ويشكره على ما تعلمه منه، سيظل مرتبكًا يحاول أن ينهى اللقاء بسرعة، قبل أن يسأله الشخص الآخر: "انت عارفنى؟" سوف ترهقه تلك اللقاءات وتعكر عليه صفو تمشيته. سيكون التذكر هو حنين للتذكر.

سوف يمشى مثلى فى شوارع المدينة، فى نزهة يومية يقطع فيها شارع البحر حتى الكوبرى العلوى، ثم يعود مشيًا

fb/mashro3pdf

وئيدًا إلى شارع البورصة. يحاول أن يجد فى ذلك السديم من لحظات الزمن صورًا لها سياق. لن يجد غير مشاهد متفرقة تفرض ترتيبها الخاص. سوف يبدأ مثلى من بيته القديم فى شارع الحلو وبوابته الخشبية ونخلتها البارزة، ولكن ما إن يتذكر صورته وهو صبى فى طريقه إلى مدرسة طنطا الثانوية، واشتراكه فى مظاهرات ضد الإنجليز فى نهاية الأربعينيات، حتى يتوه فى رحلة طويلة من العمل فى مدارس لا تحصى. سوف يفكر بحيرة فى اللحظة التى انصرف فيها عن السياسة بسبب القبض على زميل قضى فى السجن خمس سنوات. سوف يعانى على الدوام من كثرة من علمهم عندما يقابلونه فى الشارع يسلمون عليه بحماس وود، دون أن يتمكن من تذكر أى منهم. لن يتذكر غير الفصول ورائحة الطباشير.

* * *

fb/mashro3pdf

وحدة

قول سعيد عاشور:

كنت أعمل فى تجديد المئذنة الكبيرة للجامع الأحمدى عام 1976، كنا قد اجتزنا الشرفة الأولى. أنت تراها من على الأرض قريبة، لكنها بعيدة على ارتفاع ثلاثين مترًا. من هناك ترى البشر بأحجام صغيرة. تجربة مثيرة أن تكون على ارتفاع كبير، تشرف على المدينة، ترى الناس مجرد كائنات صغيرة مسكينة، مثل النمل. سيارات، عربات تدفع باليد، حناطير، عربات تجرها الأحصنة. الناس متناثرون فى وسط هذا كأنهم تائهين. لن أنسى أبدًا هذا المشهد. كنت نجار مسلح فى تلك الفترة، أعمل مثل النمل، لكن عام 1976 غير فىَّ شيئًا ظل خافيا على.

كل مرة كلما صعدت إلى أعلى يخف قلبى. فى تلك الأيام كنت لا آؤمن بخرافات المحيطين بالجامع الأحمدى. يرون أن

fb/mashro3pdf

السيد البدوى مقدس وكل الخير والبركة فى المكان آتية من وجوده. الآن يمكن أن أعتبر رأيهم له وجاهته، لكن وقتها كنت مثل حيوان يسير فى الأرض، عفيًا، مشاكشًا. ذات يوم ناقشت أحدهم وقلت إن البدوى "لا كرامات له ولا يحزنون". زفنى بعد أن نزلت من المئذنة فى المساء، قائلاً: "إنت من أنصار المذهب الخامس". لا أعرف حتى الآن ما هو المذهب الخامس؟ فى يوم آخر، كنا ما زلنا نعمل فى الشرفة الأولى، فى منتصف النهار. صعد إلينا أحد أنصار البدوى. لا أعرف يومها عما تحدثنا. الحر كان شديدًا، وكنت منشغلاً فى وضع هياكل الارتفاع التالى، بعد أن طلبت منا شركة المقاولين العرب سرعة الانتهاء من العمل. يومها غاظنى الرجل فقلت له غاضبًا: "البركات دى خرافات". سبنى الرجل وقال مرة أخرى إننى من أنصار المذهب الخامس. ازداد غيظى من ذلك اليقين العبيط، فقلت له "شيخك ولا حاجة. أشخ لك عليه؟" هممت أن أفعلها فعلا. لمحت الرعب فى عينى الرجل. يومها وقفت أتابعه ينزل مهرولاً كأنه رأى الشيطان، خائفًا أن يتدحرج من فوق السقالات، فتحدث مصيبة. لن تصدق مدى الرعب الذى كان ينزل به.

صعدنا بالمئذنة إلى الشرفة الثانية، وبدا البشر أكثر بعدا، كأنى أراهم من كوكب آخر. صمت كثيف يحيطك. تسمع فيه صوت المطارق يرتد إليك وينفذ من جسمك، قبل أن يتبدد

fb/mashro3pdf

فى الفضاء، لا يحمل نفس الثقل الذى كان يحمله عندما كنا قريبين من الأرض. لا يفارقك الاتساع المهول. ينظر إليك بعيون نافذة. من الشرفة الثانية ترى السماء قريبة وتشعر بوحدة كأنك على قمة جبل. تصحبك الوحدة حتى لو نزلت وأصبحت وسط الناس. كان يعمل معنا رجلا صعيديا، من لحظة ما يطلع إلى ذلك الارتفاع، حتى يبدأ فى غناء مواويل بصوت خافت كأنه ترتيل فيه حس حزين نائح. كنت أعرف أنه خائف. البعد عن الأرض أمر لا يمكن أن تبرأ منه. لا يمكن أن يمر بسلام. وقتها كنت أعمى، كما قلت لك. كانت سنوات عمل وثروة، وكنت مغرورا بمهارتى فى صنعة نجار المسلح. كان وقت الحرف حتى أن شركة المقاولين عرضت على أن أتعين بمبلغ خمسة وثلاثين جنيها، فى الوقت الذى كان المهندس يعين بثمانية عشر جنيها.

وصلنا الشرفة الأخيرة وبدأ الرعب. لا ترى من الأرض غير طيف، وأنت معزول فى قلب هذا الاتساع، وحيد وحدة مطلقة. لم أصل إلى نهاية العمل، ربما هربا من تلك التجربة. ذات يوم عرض علىّ رجل من كفر الزيات أن أسافر إلى السعودية للعمل نجار مسلح. فى ظرف عدة أيام كنت على متن الطائرة. قالت أمى عندما تركت العمل مع شركة المقاولين: "هذا ما فعله بك شيخ العرب، سوف يشردك فى البلاد". لم أصدقها فقد كان فى جيبى ألف جنيه. فدان

fb/mashro3pdf

الأرض وقتها كان يساوى ألف جنيه. ماذا يمكن أن يصنع بى البدوى؟

نسيت ما قالته، وعشت طويلا فى تلك البلاد، تزوجت عدة مرات، وأنجبت كثيرا من الأولاد. سافرت إلى الكويت وليبيا والعراق واليمن ولبنان وسوريا، تقريبا كل البلاد، وعدت أخيرا متعبا. اشتريت بما تبقى لى من نقود، سيارات أجرة وشغلتها على خطوط الأقاليم، حتى جاءت اللحظة. عملت السيارات كلها حوادث فى وقت واحد. فى أسبوع واحد فقدت ثروتى وأصبحت بلا شىء. حضر الحس الغريب الذى عانيته عندما

كنا نضع أساسات الشرفة الأخيرة. وجدت نفسى أردد مواويل الصعيدى. لقد حفظتها دون أن أدرى. ظلت مخزنة فى ذاكرتى دون أن أعرف أننى كنت أنتبه إليها، خائفًا مثله، من هذا البعد عن الأرض.

***

fb/mashro3pdf

حتت من أجساد الناس

"أم لبنى" ست فلاحة، قضت عمرها كله فى البلد. سمح لها طبيب التحاليل أن تقيم مع ابنتها فى الغرفة الداخلية للعيادة؛ على الأقل ترعى الطفل الصغير حتى لا تتعطل "لبنى" عن العمل. أثارت من يوم وصولها مشكلات أكثر مما أثار الطفل. فى أول ليلة قامت من النوم متخيلة أنها فى الدار، باحثة بجانب الباب عن "بيت الراحة"، وفى اليوم التالى كادت أن تكسر أنابيب الاختبار خلف زجاج دولاب الصالة. لم يطب لها الجلوس على الكراسى، فكلما طلبت منها "لبنى" أن تجلس مثل الناس على الكرسى، لا يستمر ذلك غير دقائق، ثم تحمل الطفل وتعود إلى السجادة. تقول: "الأرض حنينة". ترد لبنى متعبة: "دى مش أرض يا امه دى بلاط". وقفت فى الشرفة ذات يوم ورأت السيارات تسيل فى شارع المديرية مسرعة والناس كائنات صغيرة بعيدة. دخلت الغرفة مرعوبة من فكرة السقوط.

fb/mashro3pdf

القلق الكبير بدأ عندما أدركت أن "لبنى" تأخذ عينات من أجساد الناس لتحليلها. لم تفهم فكرة "العيّنة" وظل غير معقول، فى نظرها، أن يفقد المرء قطعة من جسده: كيف يعيش؟ ولو مات، ألا يكون موته ناقصا؟ بدأت تنام قليلا، وتستيقظ فى الليل، تصحى "لبنى" وتخبرها بأنها تسمع أصواتا فى أجهزة التحليل. كانت على يقين من أن الحتت المقتطعة من أجساد الناس، تقوم فى الليل وتطلب العودة إلى الأجساد التى جاءت منها. حتى رأت ذات يوم شابا يدخل العيادة وفى يده كيس من البلاستيك، فسألت عما فى الكيس، كانت لبنى مشغولة فأجابت دون أن تنتبه "ثدى". وقفت الست على حيلها وقالت: "صدر واحدة ست؟" قالت "لبنى" وقد انتبهت لخطئها: "عينة يا أمه عينة، اختبار سرطان". كان الأمر فوق تحملها. لم يعد ممكنا أن تنام فى عيادة التحاليل وهناك فى أحد الأجهزة، ينام ثدى بدون صاحبته.

***

fb/mashro3pdf

أنت والنجوم

كل يوم يقرأ حظه فى الجريدة. لم يستطع أن يتخلى عن تلك العادة، فأصبحت بمرور الوقت جزءا منه. أحيانا يقنع نفسه بأن الحظوظ خدعة لا يجب أن يصدقها، فالجرائد تخصص محررا يبتكر ما يشاء من حظوظ القراء. فى الصباح يفتح الجريدة متوجها إلى باب "أنت والنجوم". العنوان مثير، باعث على البهجة، يربط -سرا- غرفة الأرشيف ورائحة التراب والملفات المتراكمة على الأرفف بالنجوم البعيدة. لحظة مبهجة فى عالم داكن. كل يوم يتابع حظه غير عابئ بما ينتابه من شكوك، ويراقب أحداث يومه من خلال المقولة التى قرأها فى الصباح، أحيانا تنطبق وأحيانا يلوى عنق الحوادث لتتوافق مع ما قرأه. فى الفترة الأخيرة زاد ارتباطه بقراءة الحظ، بعد الاضطرابات التى حدثت فى البلاد، وأصبح يترقب بجدية تلك اللحظة: "ستكون سعيدا اليوم مع من تحب"، "انتظر أخبارا سارة"،

fb/mashro3pdf

"النور ينتظر فى نهاية الطريق"، تعطيه تلك الجمل لمحة من البهجة الصباحية، حتى شعر ذات يوم بأن تلك الحظوظ الجيدة لا يمكن أن تستمر على هذا النحو كل يوم، ورغم أنه - مثل الكثيرين- لا تقع عيناه إلا على حظه وحظ من يهمونه، فقد قرر أن يقرأ العمود كله. العبارات متشابهة. جمل تبعث على التفاؤل والبهجة. فى اليوم التالى وجد الجريدة وقد حملت نفس العبارات المبهجة. قال فى نفسه: ولا واحد على الأرض حظه سيئ لثلاثة أيام. ألقى الجريدة على المكتب، وخرج من الغرفة. طول هذا الوقت المحرر يضحك علينا ويهبنا أملا خادعا. ربما كان رجلا طيبا ويشعر بأننا نعيش فترة اضطرابات فأراد أن يبث الأمل فى النفوس. لكن محبى قراءة الحظ -مثله- سوف يكتشفون الخدعة وستكون رغبة محرر الصحيفة فى التخفيف عن الناس، قد أفسدت وهماً جميلا تستند عليه الحياة.

***

fb/mashro3pdf

القطط

القطط كائنات شريرة. عندما أسمع مواءها فى الليل، أستيقظ ولو كنت فى عز نومى. أنام وحدى فى الشقة. أحلم أحلاما مزعجة. وهذا المواء يزيد أحلامى رعبا. تراكمت الأحداث فى الفترة الأخيرة وجعلت الحياة لا تحتمل. كتبت عدة رسائل إلى رئيس الحى، أشكو له من أن عمال النظافة أصبحوا أكثر إهمالا. لا يحملون غير الأكياس المغلقة، وبعد أن يمضوا، يتركون الأرصفة مغطاة بطبقة من بقايا الزبالة، وأن الشارع قد تحول إلى مرتع للقطط. ذهبت بنفسى لتسليم الشكوى، لكن صخب مبنى الحى، واستخراج تصاريح البناء وغيرها من الأمور التى يعتبرونها عاجلة، لم تتح له أبدا أن ينظر فى شكوتى. جهزت شكواى إلى المحافظ لكن انشغلت. وجدت القطط قد تسللت المواسير وبدأت تخربش نافذة المطبخ. كلما طاردتهم على السلم، يجرون أمامى على أنهم خائفون، ثم يعودون مرة أخرى. فى عز الليل يثير المواء مخاوف لا تحتمل.

fb/mashro3pdf

منذ أيام حدث أمر مخجل. فى عز الليل أيقظنى صوت مواء حاد، عدوانى، نبراته واضحة كأنه كلمات منقرضة من لغة البشر، له نفس النغم ومناطق الرفع والخفض والنبر. ارتعبت عندما علت الأصوات وزاد الهرير والبخيخ. شعرت بهم يتنادون من البيوت المجاورة، سمعت مواء قطط أخرى تصعد السلم، وأخرى تنزل من سطح البيت. الصراخ الذى يشبه صوت حيوانات الغابة، جعل منى كائنًا لا أقوى على الحركة من سريرى، ولن أخفى على أحد، أن العراك ازداد صخبًا والأصوات ترددت فى بير السلم متضخمة حتى غدت واضحة. وشعرت بأننى أفهم كلامهم، كأنه لغة منسية استعدتها فى لحظة خاطفة، سرى الرعب فى أعضائى. حتى "عملتها على نفسى".

كان أمرًا مخجلاً أن أتحول مرة أخرى فى سن السابعة والسبعين إلى طفل يبول على نفسه. لأول مرة أشعر بوحدتى فى الشقة واسعة وغير محتملة. كيف عملتها على نفسى؟ كيف حدث هذا؟ فى الصباح، لكى أدارى فضيحتى، حملت المرتبة إلى البلكونة ونشرتها. لم أطق أن أنام على السرير وفيه رائحة عارى. وقررت أن أطردهم من الشارع، لكن هم من أخذ القرار.

فى المساء، كنت عائدًا من تمشيتى وجدت قطة كبيرة سمراء تقف على بسطة السلم، تنظر إلىَّ بعدوانية وتبرق

fb/mashro3pdf

عيونها فى عتمة المدخل. حاولت الصعود لكنها ماءت. فهمت أنها تعنى أننى لن أطلع إلى شقتى. كلما انحرفت يمينا انحرفت تجاهى. كلما انحرفت يسارًا انحرفت. لوحت بالعصا فى وجهها ازدادت شراسة، وبخت فى وشى ورفعت قدميها الأماميتين وخربشت طرف العصا. ماءت بصوت واضح تسبنى وتقول إن البيت ليس ملكك وحدك. لمحت ثلاثة قطط صغيرة تحتمى بطرف درجة السلم. عرفت أننى لن أستطيع الصعود إلى شقتى، مادامت تظننى سأعتدى على صغارها.

نزلت أشعر بالخزى، منهكا وخائفًا من معرفتى للغة القطط. شعرت بدوار وأنا أقطع الخطوات القليلة من مدخل البيت إلى محل حسن البقال. خمن ما أعانى فورًا عندما رآنى. كان العرق يتصبب من كل جسدى. قادنى إلى الرصيف وجاء بكرسى وأجلسنى. لم أستطع أن أقول شيئًا. أشعر بمخاوف لا تقهر، عندما أتذكر حديث القطة.

قال لى: "مالك؟" قلت: "الضغط". كنت أسمع نبضات قلبى. تتردد فى أنحاء جسدى كأنها تتردد فى غرفة مظلمة. شعرت بالموت يقف على الأطراف المدببة لنبضات القلب. كان من الصعب أن أطلب من أحد أن يساعدنى فى أن أصعد إلى شقتى. كان الأمر مرهقًا، لدرجة أننى شعرت بجذور شعرى تنشف، وفكرت أننى إن خلعت ملابسى سأجد شعر جسدى

fb/mashro3pdf

عالقا بالفانلة والسراويل. فكرت أن أقوم من مكانى، لم يكن فى قدمى أى طاقة، كأنها تحولت إلى هواء. لم يكن هناك بد. من أن أتصل بها، رغم أننى أخاصمها منذ أسبوع. لم يكن هناك بد. طلبت من حسن البقال أن يطلب ابنتى.

رأيتها توقف السيارة الصغيرة أمام المحل، وتقول بوجه بارد: مالك يا بابا؟ عندما لمست بشرتى الملزقة، أدركت ما أنا فيه. تبدل تعبير وجهها على الفور، ونظرت بجدية، وهى تضيق ما بين حاجبيها، وأعطاها هذا التعبير حسًا، بأنها عادت طفلة.

جاءت لحظة عمياء، كنت فيها مسلوب الإرادة، كأنى غير موجود. المناظر تتبدل أمامى. العمال يخرجون الصاجات من الفرن عند الناصية. عامل المكتبة يلم جرائد اليوم. أمام مستشفى طيبة عدد من الفلاحين يفترشون الأرض. لافتة تهتز بعرض الشارع لم أستطع أن أقرأ كلمة واحدة منها. ثم جاءت لحظة يقظة. عرفت فيها ما تم منذ لحظات، عندما قالت ابنتى إننى سوف أقضى فى بيتها عدة أيام.

كان ذلك حلاً لكثير من المشكلات، أهم مشكلة ألا يعرف أحد أننى "عملتها على نفسى"، وأن يتاح لى وقت لأعد خططى لأضع السم للقطط وأخلص الشارع منها، والأهم أننى فى تلك الأيام قد أنسى لغة القطط.

***

fb/mashro3pdf

زهور النرجس

تتذكر خطيبها الأول فى لحظات غريبة، بعد يقظتها فى الصباح مباشرة، وأثناء تمشيط شعرها ساهمة أمام المرآة، وبعد مسلسل المساء. كان يحمل لها أثناء زيارته، زهور النرجس الصفراء. يقطع مشوارا طويلا حتى يحصل على تلك الزهور من محل فى شارع محب. تعرفت عليه عندما تسلمت عملها مدرسة رسم فى مدرسة البنات الإعدادية. لم تستمر الخطوبة غير أشهر قليلة، فقد سخرت العائلة من حمله لزهور النرجس، وبدا أنه لا يمكن أن يعيشها بطريقة تليق بها. خاف أبوها من نزوات الفنانين، فتحجج له وفسخ الخطوبة. أصابها بعض الحزن، رغم أنها وافقت على فسخ الخطوبة. تعلقت فى تلك الفترة باللون الأصفر. حتى قالت لها أختها الكبيرة، إن اللون الأصفر دليل على أنها غيورة. دخلت نقاشات حادة دفاعا عن اللون الأصفر. تقول إنه لون ضوء الشمس، ولون الذهب، وراقبت أطيافه فى الصباح على

fb/mashro3pdf

العمارات وأسيجة البيوت القديمة فى طريقها إلى عملها، مؤكدة لنفسها أن اللون الأصفر به شىء سرى وغامض مثل النور. قالت ذات يوم بشكل حاسم كأنها تلقى أهم دليل فى وجه أختها، إن اللون الأصفر من الألوان الأساسية لا ينحل إلى غيره، وسط بين الأزرق الموت، والأحمر الجحيم. كانت تحاول أن تبرر حبها للون الأصفر وهى فى الأصل تحاول أن تطمس صفة الغيرة.

كانت تعرف أنها غيورة، والغيرة جعلتها أنحف البنات الثلاثة، وأقصرهن، لكنها أيضا جعلتها أكثر عنادا وإصرارا. كثيرا ما وقفت وحدها فى الغرفة المظلمة تحاول أن تربط حمالة الصدر بلف ذراعيها لأقصى حد، حتى لا تضطر أن تطلب المساعدة. وفى لحظات التأمل ترى أن الغيرة ساعدتها فى الحياة. كانت أكثر البنات الثلاثة غرابة وجرأة وقدرة على إقامة علاقات خارج محيط العائلة. تتذكر بوضوح ذلك اليوم الذى ولدت فيه الغيرة. كان يوم جمعة، أختها الكبيرة خرجت من الحمام، شعرها طويل كثيف ناعم، وقفت أمام مرآة البوفيه فى الصالة الواسعة تمشط شعرها وتلفه بهدوء. بدا وجهها المستدير وعيونها البنية جميلة. فى تلك اللحظة اشتهت أن تكون مثلها. يومها كرهت نفسها لأنها لم تقدّر المخلوق الذى يعيش فى كيانها، وأصرت منذ ذلك الوقت أن تحبه وأن ترعاه كأنه إحدى صديقاتها.

fb/mashro3pdf

هذه الأيام لا تعرف لم تتذكر هذا الخطيب، تقريبا كل يوم، وتسأل صديقتها الحميمة فى المدرسة، هل من تفسير لاستعادة سنوات الرومانسية، بعدما يكبر الأولاد ويشعر المرء بأن الحياة أصبحت خالية؟ لا تجد تفسيرا، وتنسى الموضوع مؤقتا وتدخل فى مناقشة حول مكونات كيكة العسل الأسود، والفرق بينها وبين كيكة دقيق الذرة. فى الفترة الأخيرة بدأت تشعر -كلما ذهبت فى مشوار- أنها سوف تقابله. تحاول أن تفكر بعقلانية خائفة من الهبط الذى أصبحت فيه وهى تقترب من الخمسين، وترى أن الأسباب التى رفضته من أجلها لازالت قائمة، ولو فرض أن تقدم لابنتها شاب مثله، فلن تتردد فى رفضه؛ الحياة الملونة التى يحملها هشة أكثر من اللازم، يمكن أن تتبدد فى أية لحظة، مثل حلم. رغم تلك المحاولات فى التفكير العقلانى، لا يمر يوم دون أن تتذكره، وتشعر بإشراق فى كيانها، لأنها ذات يوم كان لها خطيب يحمل إليها زهور النرجس، حتى جاءت ليلة الأمس. كانت تعد نفسها لعمل فحوصات على القلب، عندما اخترق كيانها يقين أنها سوف تراه فى العيادة. شعرت بالغضب، وقالت ساخرة: "كيف سأراه؟ هل سيكون جالسا مثلى مريضا بالقلب فى صالة الانتظار؟ أم سيكون هو نفسه طبيب القلب؟" أدارت موتور السيارة بعنف وبدا لها أن تلك الأخيلة الغريبة تشير إلى بداية الخرف.

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

حالات القهوة

"عم بيومى" يعرف الناس من قهوتهم. بعضهم يحبونها "مضبوطة". يفضلون التوازن بين المر والحلو. يقيسونه بمقياس حساس. نسبة ذهبية مرصودة فى صدورهم، يعيشون بها الطعم. فى بعض المرات تأتى القهوة باردة، فيعطى للمرارة طغيانا رهيفا؛ يحسونه. بعضهم يشعر بالإحباط أن عمال المقاهى لم يعودوا قادرين على ضبط القهوة. يبتسم "عم بيومى" مدركا أنهم لا يراعون أن "المضبوط" له معيار عند كل واحد منهم، وهم أنفسهم قد تدربوا طويلا حتى أدركوا حساب الكميات التى تنتج الطعم الذى يفضلونه.

من يحبونها "زيادة"، لهم سمات أخرى وطريقة أخرى فى الحساب، يفضلون تغليب حلاوة السكر على مرارة البن، بدرجات متعددة. هؤلاء أكثر الناس صعوبة، وتنوعا. عدد هائل من الناس يحبون القهوة "زيادة"، إنهم "هواة" شرب

fb/mashro3pdf

القهوة، لا يتحملون المرارة، هوائيون، لهم خفة فى التفكير ومشاعرهم متقلبة.

بعض الناس يحبها "على الريحة". إنهم يميلون إلى المر، لكنهم غير قادرين على تحمله. غير حاسمين. طباعم تقترب من طباع من يحبها "زيادة". أما من يحبونها "سادة" فإنهم تركوا الحساب وانحازوا تماما إلى نقاء البن، إلى صفاء المرارة. إنهم متأملون. قدرتهم على التحمل عالية. عرفوا الحياة، قبلوها بحلوها ومرها.

هناك من لا يحبون شرب البن، يحبون رائحته. يقضون عمرهم على الشاطىء غير مدركين أنهم فقدوا قدرا من سحر الحياة، مثل من يتفرج على الحب ويتمناه، لكنه لم يجربه. هؤلاء يعيشون على الحافة، سوف يموتون دون أن يتعرفوا على روح الحياة.

قال عم بيومى: أنت لا تصدقنى، نعم البن روح الحياة. عملت هنا خمسين عاما، زبائنى كانوا أعيان البلد، عرفت أن الحياة كلها هنا، فى القهوة، وأن البن هو روح الحياة.

***

fb/mashro3pdf

حكاية ساحة المحطة

تقول "أم حازم" إنها رأت المظاهرة الدامية فى ساحة محطة طنطا، فى مارس من عام 1919. تحكى الحكاية بطريقتها الخاصة لعمال الفرن على الناصية وللترزى وللشاب الذى فتح محل تلفونات فى وسط الشارع، تقول إن الناس كانوا يهتفون بسقوط الإنجليز وبحياة سعد باشا، أمام مبنى المديرية القديم المبنى بالخشب. كانت الأصوات عالية، والحكمدار يقف فوق مبنى المحطة ومعه قائد العساكر الإنجليز، وإلى جوارهم المدفع الكبير منصوب على منصة ذات الأرجل الثلاثة. يشعر المرء أنها تروى حكاية سمعتها أكثر مما تحكى أمرًا عايشته، فهى تذكر الحوار الذى دار بين الحكمدار، كأنها كانت فوق سطح المحطة. قال القائد الإنجليزى: "أضرب؟"، قال الحكمدار: "إنهم لا يريدون أن ينصرفوا". "يعنى أضرب؟" سأل القائد الإنجليزى. رفع الحكمدار يده وقال بتسليم: "اضرب". فى تلك اللحظة أدار

fb/mashro3pdf

حلقة المدفع، وهاجت الدنيا واشتعلت وسقط الشباب غارقين فى دمائهم، منهم عم ياسين السقاء الذى كان يورد الماء لبيتهم فى شارع الصاغة. كانت صغيرة وفى الصباح وهى تمسك فى يد جدتها رأت دماء الناس على الأرض، وشعرت بالمكان مهجورا وباردا، وفى الليل، كانت تسمع الأرواح تطوف بالميدان، وتسمع هرير المدفع.

تعالج "أم حازم" بصعوبة البوابة الحديد وتقف مرهقة أمام البيت. تسير بخطوات مرتبكة، تتفحص المارة. توقف أحدهم وتسأله عن اسمه، ثم تعرفه نفسها: "أنا أم الدكتور حازم". وتحكى حكاية ميدان المحطة، تطلب كرسيا من عمال الفرن على الناصية، وتجلس ذاهلة قليلا. سكان الشارع سمعوا الحكاية عدة مرات، أثناء تمشيتها الصباحية والمسائية، من أجل شراء الخبز. كانت تعيش وحدها، تزورها بنتها من وقت إلى آخر. وفى الأيام الأخيرة لم تتحدث فى شىء غير حكاية ساحة المحطة. كانت تزداد نحولا يوما بعد يوم وترتدى ملابس خفيفة فى الشتاء، كأنها لم تعد تعيش فى هذا الزمن. فى الصباح تنشر المخدات على سياج البلكونة وتقف، تراقب التلاميذ فى طريقهم إلى المدرسة وتنتظر عودتهم.

قبل موتها بعدة أيام، وقفت فى البلكونة تنتظر طلوع الأولاد من المدرسة، مبتسمة للصخب الذى يعطى حيوية

fb/mashro3pdf

للنهار. يومها نادت رجلا يعبر الشارع:

"يا فندى يا فندى".

رفع الرجل عينيه تجاهها، قالت باسمة

"الدواوين إضراب النهار ده".

تعجب الرجل. بالصدفة كان "إبراهيم" فى الشرفة المجاورة، ابتسم للرجل وحياه، وسألها:

"حد جاب لك عيش النهارده؟"

قالت وقد نست موضوع الإضراب بأن سعيد البواب أرسل لها ثلاثة أرغفة.

فى الصباح التالى، كانت أصوات عمال النظافة عالية. نادت عليهم بصوت مبحوح، كأنها لم تنم لحظة واحدة:

"إنت يا جدع إنت وهو، استنى ما تشيلش الزبالة".

نظر إليها سائق السيارة، مرتبكا، شوحت بيدها من البلكونة. واستدارت، لفت الحرام حول كتفها ونزلت بجلباب البيت. بعد قليل كانت تقف على الناصية، تشب محاولة أن تطل فى جوف صندوق الزبالة. نظر العمال باستغراب. قالت إن ثلاثة شباب وضعوا هنا فى الليل رأس بنى آدم. انتظرتكم طول الليل. كانت تتكلم بجدية، ولم يكن يبدو عليها الشرود الذى يحيط بها وهى تحكى حكاية ساحة المحطة. جاء

fb/mashro3pdf

المشرف وسألها: طلباتك يا أمى. قالت: بالليل حطوا فى صندوق الزبالة رأس بنى آدم. أشار المشرف من وراء ظهرها للعمال أن يواصلوا العمل، وظل واقفا يسمع حكاية أخرى من حكايات "أم حازم".

بعد تلك الواقعة لم يشاهدها أحد فى الشارع. فى اليوم الثالث أطل إبراهيم، من البلكونة وسأل عم حسين الترزى إن كان قد رأى أم حازم وهى تنزل فى الصباح. قال عم حسين إنه فتح متأخرا اليوم وأنه لم ير بلكونتها مفتوحة. قال إبراهيم إنه خبط عليها لكنها لا ترد، قال عم حسين اتصل ببنتها.

قال إبراهيم:

"مسافرة".

* * *

fb/mashro3pdf

الغارة

فى ذلك الصباح كان فى طريقه إلى الجبل ليقضى "حاجته". فى يده كوز ماء ليغتسل. سمع وهو يغادر "الكتيبة" صوت قرآن السادسة يصدر من راديو صغير ناحية مخزن السلاح. فى منتصف "العملية"، سمع الأزيز الغامض القادم عبر خليج السويس. كان قد تعود على أزيز الطائرات ويمكنه أن يميز الهجوم من طريقة اقتراب الصوت. فى لمح البصر حلقت الطائرات فوق الموقع. هب واقفا، لا يعرف ما إذا كان قد اغتسل، وكيف زرر سراويله، وطار إلى مكانه فى الخندق.

كان يصف المشهد بدهشة من يتذكر شيئا، ظن أنه نسيه إلى الأبد. قضى عمره فى مدرسة الصنايع، مدرسا لمادة اللحام. لم يتذكر ذلك الصباح ولا مرة واحدة. ما الذى حدث لتلك اللحظة من عمره، هناك أثناء نسيانها طول تلك السنين، حتى تتحول الليلة إلى حكاية مضحكة، يحكيها لأصحابه فى المقهى؟

fb/mashro3pdf

دمرت الطائرات الموقع بالكامل. بعد الهجوم كان يرقد ميتا مع زملائه فى الخندق. سمع صوتا بعيدا، كأنه نافخ البوق. الصوت صاف يجيء من واد آخر:

"كلهم استشهدوا يا فندم"

"كلهم؟"

"كلهم"

"والعسكرى حمدى معاهم؟"

"والعسكرى حمدى معاهم".

هنا أفاق "حمدى" من موته، وهب واقفا:

"أفندمممم"

لحظة يقظته من الموت هاتفا "أفندم". تشبه لحظة البعث يوم القيامة. أصبحت أثناء حكيها، بعد ثلاثين عاما، فى مقهى صغير، فى زقاق ضيق بجوار جامع الشيخة صباح، فى برد ليلة من ليالى الشتاء، تفيض بالشك حول موته وحياته، رغم طرافة الموقف وضحك الأصحاب. لحظة هشة، فجة، شديدة الخشونة، كأن من ماتوا فى ذلك الصباح يعيشون فى مكان آخر، ربما فى مدينة أخرى، يجلسون فى مقهى مشابه، ويشكون من متاعب أمراض نهاية العمر، ويحكون حكايات مضحكة أخرى عما حدث لهم أثناء تلك الغارة.

* * *

fb/mashro3pdf

روح صدام حسين

شاهد "مصطفى" روح "صدام حسين" تفارق جسده. كان فى تلك الليلة مرهقًا. ركن التاكسى أمام الجراج وألقى المفاتيح للعامل، وتوجه إلى شقته، كارها لكل شىء. عطل صخب ليلة العيد اكتمال "الإيراد". فقد توقف كثيرا فى زحام شارع البورصة، وأوصل إحدى قريباته إلى بيتها، واضطر أن يصعد معها، وأن يبقى قليلا، تحدثه عما حدث لأبيه أيام الجيش، وكيف أهدر ثروة العائلة على مزاجه. لو لم يهدر الثروة لما كان مصطفى الآن يعمل سائق تاكسى. كانت ليلة باردة، شعر بتيبس فى عظمه وحسه بأن الدنيا إلى زوال كان قويا.

عندما دخل شقته فى الفجر، لم يكن يريد أن يفعل أى شىء غير أن ينام ويتحول إلى بياض. وجد زوجته نائمة وبنته الصغيرة تركت لعبها فى الصالة: عراقس منزوعة الأذرع والسيقان، وقطع مكعبات فى كل مكان. جلس يدخن ويقلب

fb/mashro3pdf

فى قنوات التليفزيون. توقف بالصدفة عند مشهد إعدام صدام حسين. حضر انتباه لا يعرف من أين. لم يكن له أى اهتمام بالسياسة. لم يسافر إلى العراق مع زملائه بعد التخرج فى الجامعة. كان يلاحق القضايا المرفوعة على أبيه فى ذلك الوقت. لم يهتز لحظة عندما عرف أن أمريكا احتلت العراق. لا شىء من هذا. لكنه توقف أمام لحظة الإعدام كأنها تحدث أمامه وحده دون البشر جميعا.

كان مشهدا غريبا. يُقاد صدام فى بالطو أسود، ويصعد إلى المنصة، وأصوات من خارج الفيديو تهتف ضده، والرجل يرد كأنه ذاهب إلى نزهة: "ما هكذا يقول الرجال"، أو شىء من هذا القبيل. زاد انتباه مصطفى حدة، وفى اللحظة الفاصلة بعد أن التف الحبل حول الرقبة، طق شىء فى السالة، قادما من جهة الثلاجة، فى نفس الثانية التى زر فيها الحبل على الرقبة وتدلى الجسد. ظل مصطفى يتساءل عن الصوت الذى سمعه، هل جاء من تكسر الثلج فى الفريزر، أم من الحبل الذى زر على رقبة صدام؟ عندما رأى طيفا أبيض مثل الضباب ينحل عن الجسد ويتشكل على هيئة كائن ويطير عاليا.

لقد رأى ذلك. كان متيقنا. قلب فى القنوات لكى يرى الفيديو مرة أخرى. لم يسمع صوت "الطقة". لم يشاهد الضباب يتفصد من الجسد، ورغم ذلك ظل متأكدا من أنه

fb/mashro3pdf

رأى الطيف الأبيض. لم تمح رؤيته للفيديو أكثر من مرة، الرعب، بل زادته وحولته إلى حس مضاعف بعبث الحياة. لم يكن جاهزا فى تلك الليلة بالذات لمعاينة روح تغادر جسدها، وظل الخط الفاصل بين الحياة والموت يبرق مضيئا فى ظلام الغرفة بعد أن تمدد على السرير.

فى العيد زارت أخته البيت. لم يستطع أن يقوم ليقابلها. شعر بها تقف أمام السرير، وسمع زوجته تقول: راقد من يومين وصاحب التاكسى كلمه وهو لا يرد على أحد. دست أخته يدها تحت المخدة. عرف أنها تركت له نقودا، فقال ساخرا: تركت لى حسنة. لم يقم من نومه إلا فى اليوم الثالث، عندما أصر أحد أصحابه أن يراه قبل سفره إلى الخارج. لبس ملابسه كأن رملا يسكن جسده. يومها حاول أن يفك من الكآبة بالمزاح مع أصحابه، لكنه تأكد من أنه أصبح يرى الدنيا بطريقة مختلفة. يرى شيئا غائرا فى الحياة لا يمكنه أن يفهمه. رفض مصطفى أن يشاركهم شرب البيرة وجلس صامتا محدقا فى الفضاء، ثم فجأة راح يبكى. لا، لم يكن بكاء، ارتعش جسده بالكامل، وراح يقول بصوت مكتوم: آآآآآه، كأنه يعانى من ألم حصوة فى الكلى. بعد قليل أفاق ثم أخذ يتحدث عن مشهد إعدام صدام، وعن أن الحياة لا تعنى شيئا. وأنه فى القريب سوف تنخلع الأشياء من جذورها. سنصحو ذات يوم ونجد العمارات قد طارت

fb/mashro3pdf

وحلقت فى السماء، والسيارات تعوم فى الفضاء، والناس مثل أكياس البلاستيك معبأة بالهواء، تدفعها الريح من مكان إلى آخر. سيحدث هذا فى أية لحظة، يمكن أن يحدث فى اللحظة التالية. ظل يعيد تلك الصور عدة مرات ثم يعود إلى مشهد إعدام صدام، ويقول مندهشا، هذا الرجل كانت تقف له الدنيا ويُرهب العالم، فى لحظة واحدة صعد منه ضباب أبيض، وتدلى مثل الذبيحة. الحياة أمر فارغ. فى تلك الليلة لم يكف مصطفى عن الكلام، كأنه يحاول الفرار من أشباح لا تكف عن مطاردته.

* * *

fb/mashro3pdf

دفتر الحضور

فى الصباح أسرع إلى مبنى الإدارة، شاعرا بتوتر فى أعضائى. أعبر بوابة من الحديد، عتيقة، يجلس جانبها عسكرى، نصف نائم. أسرع إلى دفاتر موضوعة على منضدة من الصاج بعرض سقيفة، عند مدخل باب المدير العام، ثم أوقع بالحضور. فى تلك اللحظة يذهب التوتر. وُلد الموظف. أهمية توقيعى بالحضور سر بعيد عن فهمى، لكن الراحة التى تعقبه ، أصبحت تشدنى بمرور السنين، لذلك عندما أحصل على إجازة ينتابنى القلق، كأن اليوم ينقصه شىء، كأنه فاقد للمصداقية ويحتاج إلى توثيق.

أمس كان يومًا عاديًا. عبرت البوابة. وقفت أمام السقيفة. أمسكت القلم الجاف المربوط بالدوبارة إلى رجل المنضدة، وكدت أوقع. رأيت نفسى مقرفصًا داخل الخانات الصغيرة الممدودة بجانب اسمى. بدت لى غرف صغيرة يتم حبسى فيها كل يوم. كأن كتابة اسمى فى تلك الخانة هى تقييد

fb/mashro3pdf

بالسلاسل فى تلك الغرفة الضيقة. وجدت نفسى أترك القلم مكانه، وأستدير خارجا من البوابة، رغم أن القلق أخذ يطلق طنينا يشبه صفارة إنذار. منظر الخانات الممتدة أمام اسمى مسجل فوقها تاريخ اليوم والغد والغد إلى نهاية الصفحة جعلنى غير عابئ بما سيحدث لى.

تجولت فى الشوارع. كانت المجارى طافحة فى الشارع الرئيسى، وأصحاب محلات الأدوات الصحية يسدون الرصيف بقوالب من الطوب حتى لا يصل ماء المجارى إلى داخل الدكاكين. عمال البلدية فتحوا بالوعة وجلس اثنان على حافتها. اضطررت للدخول فى حارة ضيقة بها مدرسة ابتدائية تم هجرها، ومخازن قديمة مسقوفة بالصاج. كان عدم الذهاب إلى العمل به حسا مريحا، لكن الإحساس بالقلق عاد مرة أخرى، لم أكن أعرف إلى أين أذهب. قلت سوف أتمشى فى الشوارع بلا هدف، أو أزور عمتى، أجلس فى أى مقهى، أقرأ جريدة مسائية، وأشاهد الناس أمام قسم البوليس، أجلس صامتا أتابع مباراة أو فيلم من الأفلام، أفعل أى شىء أى شىء.

فى الحقيقة كانت لحظة عابرة، وكنت أعرف أنها سوف تمر.

* * *

fb/mashro3pdf

دعامات للذاكرة

فى ركن غرفته، دولاب إيديال، فوقه أيقونة من دير سانت كاترين، ومبخرة من الفخار عثر عليها فى بيت قديم فى واحة سيوة، ونوع نادر من الحجر جاء به من الصحراء الشرقية، وتمثال لنفرتيتى مطلى بالفضة، أما فى داخل الدولاب فهناك تذاكر المسرح التجريبى وكارنيه صحافة، وإعلانات معارض الفن والندوات، وتذاكر القطار مسجل عليها اليوم والشهر والسنة.

قال لى: هذه دعامات للذاكرة، قد حتاجها ذات يوم، عندما أحكى لأحفادى قصصًا. يمكن لتذكرة قطار أن تساعد فى استعادة حكاية كاملة. يمكن لكارنيه الصحافة الذى حضرت به عروض مهرجان القاهرة السينمائى أن يعيد فتاة كنت متعلقًا بها فى ذلك الوقت. كنت رومانسيًا، ولكى أعالج الحب، ذهبت فى رحلة إلى الواحات البحرية. هناك قضيت وقتا طويلاً، جالسًا جلسة التأمل، فوق التل وحيدًا.

fb/mashro3pdf

مؤمنا بأن صمت الصحراء سوف يبدد ألم الحب. يمكننى أن أرتب مسار حياتى بناء على تلك القطع من الورق، وعندها سيكون عندى أرشيف كامل. أما ما أهمية كل ذلك -إن كنت تسأل- فإنه لا شيء. ما أهمية الحياة نفسها؟

احتفاظه بشواهد على أنه عاش، يشير إلى عدم ثقة فى فكرة العيش، وإلى قلق من الزمن الذى لا يمكن إمساكه إلا عبر قطع من الورق. أدركت أنه لن ينتبه أن تراكم هذه الأوراق سيخلق متاهة. فقد تتزايد تلك الشواهد حتى تصبح هى الذاكرة نفسها. وبمرور الوقت قد يتحول الأمر إلى اقتناء للحظات بدل عيشها، أو عيشها من أجل اقتناء شاهد عليها، ومع تقدمه فى العمر بدا واضحًا أن الانهماك فى جمع الشواهد من أجل حكاية قصص للأحفاد، ربما يحرمهم أصلاً من المجيء إلى الحياة.

* * *

fb/mashro3pdf

صالة السنترال

فى منتصف الثمانينيات، كانت المكالمات الدولية تتأخر كثيرًا. كنت أقضى وقتًا طويلاً جالسًا على المقاعد الخشبية فى صالة السنترال، منتظرًا مكالمة ثلاث دقائق. نافذة الموظف المناوب ضوؤها ساطع، ورنين جرس التليفون المبحوح يجعل ضوء الكبائن الأصفر أكثر سكونا، كأن لحظة مصيرية قد حانت. لم أتحمل صخب السنترال بالنهار، فعدد الراغبين فى المكالمات الدولية كان كبيرًا، والكلام يتعدى الكبائن وينتشر فى فضاء الصالة؛ عن الحوالات البنكية التى تعثرت فى الطريق، والأقساط المتأخرة، والشباب الذين كبروا وراحوا يثيرون المشكلات والبنات اللاتى أصبحن على وشك الزواج، وطوابق البيوت التى تنتظر التشطيب. بعد سنوات طويلة أفكر أن صالة السنترال فى النهار جسدت صخب تلك الأيام ولهاثها.

fb/mashro3pdf

رحّلت مكالماتى إلى الليل. أثناء الانتظار كان لابد أن أعثر على الكلمات المناسبة، وأحسب الدقائق الثلاث بدقة. كنت أرغب فى سماع صوت الفتاة التى أحببتها فى ذلك الوقت أكثر من أى أمر آخر. فى وسط الحديث عن تجهيز أوراقى للسفر، ومحاولتها استخراج تأشيرة دخولى تلك البلاد، كنت أبحث عن علامات الحب فى نبرة صوتها، محاولاً عزله عن وشيش الخط. لكن الانتباه إلى مرور الوقت ما يلبث أن يبدد كل ذلك؛ فقد كان ثمن المكالمة غاليًا جدًا، ولا مفر من موازنة الفائدة التى يحصل عليها المرء بالنقود التى يدفعها. غالبًا ما انتهت تلك المكالمات بالحيرة. أخرج من السنترال شاعرًا بالإحباط، فقد كانت المكالمات مثل القبلات التى تبادلنا فى بير السلم، لا يتساوى الإشباع فيها مع الانتظار الطويل والشوق.

لم تكتمل تلك الخطوبة، ولم أسافر إلى تلك البلاد. ربما أحببت تلك الفتاة أكثر مما أحببت العيش معها، ويبدو أن خبرة الانتظار فى صالة السنترال قد تركت أثرها فى حياتى؛ فبعد أن تسلمت عملى فى إحدى المصالح الحكومية، قضيت الليالى ألعب الاستميشن مع عدد من الأصحاب، عازفا عن الزواج وعن مواصلة الحياة بهذه الطريقة، ورغم أن أختى تقول إننى قد أضعت حياتى، غير أنه من الصعب أن أصارحها بما أضمر. بعد كل تلك السنين لا أعرف أحدًا لم يضع حياته.

fb/mashro3pdf

انكسرت النظارة

كسرت نظارة محفوظ بعد حلاقة ذقنه مساء الجمعة. تدحرجت وأصرت على التحطم. تركها على أرض الحمام وجلس فى الصالة يدخن، مندهشًا مما حدث. أعاد فى ذهنه تفاصيل الوقوع عدة مرات. أبصر طيف الإصرار، فى حركة انزلاق النظارة. وشم رائحة مؤامرة؛ فقد انفلتت وهو يرفعها -مثل كل مرة- من الذراع، بعد أن غسل وجهه. حرك كفه ليلحق بها قبل أن تصل إلى الأرض، فاصطدمت بالكف وانحرفت تجاه حافة حوض الغسيل، كاد أن يلحق بها، لكنها ارتدت مبتعدة عن مرمى يديه وسقطت فوق البلاط.

كلما أراجع التفاصيل أدرك أن النظارة، تربصت به مثل غيرها. وجاء الأسى من أنه لم يكن ينتظر منها بالتحديد هذا الغدر، فقد انتظرت حتى يوم 25 من الشهر لتنكسر. أغمض عينيه غير راغب فى التحرك، وفكر أن أسبوعًا سيئًا قد خُتم بخيانة النظارة. اتصل "حازم" ابنه الكبير من

fb/mashro3pdf

فلوريدا، وطلب عددًا من أوراق البردى. تكلف شحنها ستمائة جنيه، وعندما اشتكى على نحو خفى من مصاريف الشحن، قال "حازم" إنه سوف يرسل ستمائة دولار، لكنه يقول هذا الكلام طوال عامين منذ أن سافر. بالصدفة ترك "الموجه العام" مكتبه ومر على المدارس، ولامه يوم الاجتماع أنه لم يتابع مدارس "الأطراف" فى زياراته التوجيهية. عاد يوم الثلاثاء مرهقًا من حديث الموجه فهذه أول مرة يتلقى اللوم، منذ أن عمل مدرسًا للزخرفة، قبل خمسة وعشرين عامًا. أكثر تلك الحوادث إيلامًا هى المناقشة التى دارت بينه وبين "حسام" ابنه الصغير بعد صلاة الجمعة. ذكر الولد بطريقة مازحة وهو يتوجه إلى المطبخ أنه يريد أن يخطب، حتى لاينحرف. طرق الانحراف أصبحت سهلة. "حسام" رسب العام الماضى فى السنة النهائية فى معهد الخدمة الاجتماعية، ويريد أن يخطب البنت التى تعمل فى محل الفضيات. "محفوظ" متيقن أن البنت تضحك عليه.

قال الولد: "من حقى أن أخطب".

قال محفوظ: "تخطب وانت بتاخذ مصروفك منى؟"

قال حسام بيقين: "واجبك."

انتبه للطريقة التى تحدث بها ابنه، ورد بجدية بها قدر من المزاح:

fb/mashro3pdf

"واجبى يابن (...) يعنى لاحمد ولاجميلة."

جاء حسام من المطبخ يحمل كوب الشاى. متوجهًا إلى غرفته، وقال بطريقة عابرة:

"حمد على الفيلا والبى إم دبليو؟"

ربما أدرك "حسام" أن الأمر سوف ينقلب، فقال جملة من حوار مسرحية كوميدية بنفس طريقة الممثل:

"مش قد الخلفة بتخلفونا ليه؟"

لكن "محفوظ" التقط الحس الخفى بالنكران. أنصت إلى الرنين المميز لنغمة فتح الكمبيوتر، وراقبها تتبدد فى صمت الصالة. حاول استكمال قراءة أهرام الجمعة، لكن النكران كان مربكًا. حاول أن يتخلص من الأمر برمته موجها تفكيره إلى النقاط الجيدة: فالولد قد كبر، ويتحدث كرجل. لكن الأمر كان جارحًا. ماذا يفعل؟ كان جارحًا. الولد يسخر من حياته، كأنه لم يفعل أى شىء، كأنه عاش هدرًا طول الوقت. قد تكون اللحظة التى زهق فيها فخلع النظارة وألقى بها بعصبية على الجريدة، هى التى اتخذت فيها النظارة قرار التمرد، وأيضا هى التى أرهقت أعصابه، فلم يتمكن من إمساك ذراع النظارة.

شعر بحركة زوجته، فى غرفة النوم بعد قيلولة العصر. لم يكن هناك ضوء غير الانعكاسات التى تركتها لمبة الحمام.

fb/mashro3pdf

عبرت الصالة، وبعد قليل سمع شهقتها، وانتظر حتى سمع الكلمات بنفس الترتيب الذى توقعه:

"يالهوى النظارة انكسرت؟"

لمت الشظايا، وجاءت تحمل الشمبر ووضعته على ترابيزة الصالة. منظرها بقميص النوم ضخم. أشعلت نور الصالة فانسكب النور كما ينسكب زيت فى طاسة القلية، وأغشاه قليلا. للحظة خيل إليه أنه يمكن أن يرى بدون النظارة، بعد قليل رأى الحواف المشوشة للفسيل المكوم على مقعد بجانب الباب، والليونة التى ظهرت بها كراسى السفرة والفازة الكبيرة. سألته عما دعاه أن يترك الزجاج فى الأرض وهو يعرف أنها تدخل الحمام حافية. طريقتها فى السؤال سدت أمامه باب أمل انفتح أثناء الصمت أن يطلب منها ثلاثين جنيهًا من فلوس الجمعية التى تشرف عليها يركب بها عدسات جديدة. أدرك أنه لو فعل، فسوف يفتح نقاشات منحوسة حول مرتبها ومرتبه. وسوف تزيده تلك المناقشات مرارة، وسوف يدرك أن كل ما قام به فى حياته لاشىء. فتحت التليفزيون بعد أن تركت له كوب الشاى على ترابيزة صغيرة بجانبه. لم يستطع من مكانه أن يرى الصورة بوضوح فأغمض عينيه وخيل إليه أنه يمكن أن يميز الأصوات الزائفة من الأصوات التى تتحدث من القلب.

fb/mashro3pdf

صحا فى الصباح على صوت عصافير خلف شيش غرفة النوم. تحسس الكوميدينو ليأتى بالنظارة، وأدرك ما حدث ليلة أمس. ضاعت بهجة أصوات العصافير. غسل وجهه وارتدى ملابسه ووقف أمام المرآة. ظهر شبحه فى مواجهته. صورة مشوشة، تقريبًا بلا ملامح. لابد أن هناك شيئًا حقيقيًا ومحزنًا فى صورته المشوشة. نظر فى الساعة فحامت غلالة حول العقارب ومنعته من رؤية الوقت. أدرك أن النظارة حياته وأنه بفقدها قد انحلت الروابط بينه وبين الأشياء.

نزل السلم مستندًا على الدرابزين، وعندما عبر البوابة إلى الشارع، هاله الفضاء الواسع. لم يكن هو نفس الشارع، هناك بصمة أخرى لمنظر البيوت، ورائحة الرطوبة لم يكن أبدًا بهذا الحضور. تخيل أنه فى مكان آخر فى بلد أخرى. كان يشعر فى كل خطوة أن قدمه يمكن أن تهوى، أو تتعثر. انحرف إلى شارع السوق وتابع الصخب ورائحة الغيطان محمولة فى مشنات الفلاحين. وقف ينتظر الميكروباص فى ميدان المحطة محاولاً أن يتقبل المنحة التى وهبها له تمرد النظارة. حاول أن يقنع نفسه بأنه فى مدينة أخرى، وأن عليه أن يستمتع قليلاً بحس الطفو الذى منحه له غياب النظارة.

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

أبى

كان يرقد على الفراش فى غرفة المستشفى. عيونه بارقة، وجهه أصبح نحيلاً وبرزت ملامحه. كل شىء كان ينذر بالخطر؛ بمشاوير وأطباء ومستشفيات وتحاليل وأشعة، فقد كشف الجسد فجأة عن عصيان محير، وكل لحظة أصبحت تنبئ بأمر غير متوقع. عشنا فى متاهة خلال عدة أشهر. زرنا أطباء من تلاميذه ومعارفه. كانوا حائرين أمام مرضه. الأشعات والتحاليل أظهرت سلامة الجسم. من أين جاءت أورام المخ؟ أكد لنا طبيب نابه أن أورام المخ أورام فرعية، لابد أن يكون لها أصل فى الجسم. علينا مرة أخرى أن نفحص أعضاءه الداخلية بأنواع حديثة من أشعة مغناطيسية. أخيرًا ظهرت النقطة الغامضة السوداء فى المثانة، ربما تكون أصل الداء الذى تسرب منه الورم إلى المخ.

طول الليل يتقلب فى السرير. يقول إنه سيحاول أن ينام قليلاً. بعد دقائق يسألنى: "إنت صاحى؟" يعتدل على الفراش

fb/mashro3pdf

ويتنهد ويحدثني عن طبيعة المرض، وكيف أنه محنة ومنة من الله ، ويسألني عن رأيي في الأطباء وعن نوعية شخصياتهم. عرفت أنه خائف. كان الخطر يهل علينا في كل لحظة، لكن الآن بعد أن تحدد دخولنا غرفة العمليات، في الحادية عشرة من صباح اليوم التالي أصبح الموت والحياة متساويين في احتمال حدوثهما.

بدأ نور الفجر يلتصق بزجاج النافذة خلف سريره. غدت ملامحه أكثر تحديداً، وخيل إلي أنني أراها لأول مرة وقد خلت من التعبيرات المعتادة التي عايشتها سنوات عمري، لم يعد يطوف على صفحتها غير حيرة وترقب المواجهة المنتظرة مع الموت. بدا في رداء المستشفى الأخضر مختلفاً، عن منظره في الصباح وهو يفتح باب الشقة. يغلق السلك ويجلس بجوار الباب يقرأ القرآن. تعد أمي القهوة وتجلس قليلاً، يتحدثان بهمس عن مشاغل اليوم، ثم يكمل قراءة ورده اليومي، كأنه كان ينتظر سن المعاش حتى يستعيد ما حفظ من القرآن في صباه. تململ في السرير، واستدار لينظر إلى الضوء خارج النافذة، وقال:

"النهار طلع".

لا أعرف ما الذي جعله يحكي لي عن حياته. لم يفعلها أبداً. لا أعرف مدى عمق تلك اللحظة التي دفعته آن يحكي كيف تعلم القرآن في كتّاب بلدته، وكيف كان نابغة، فقد

fb/mashro3pdf

حفظه قبل أن يصل إلى سن العاشرة، وتوقف عند أجمل سنوات العمر، عندما كان يدرس فى كلية دار العلوم. ويسكن فى "مصر القديمة". توقف هنا طويلاً، يصف الناس والدروس والأساتذة. كان يتحدث بحماس كأن عليه أن يفضى بكل ما فى قلبه قبل أن يرحل. يتعجب من مصيره، يرى الخط الدقيق الذى سار عليه، منذ أن كان صبيًا فى نهاية الثلاثينيات يحمل المصحف ويذهب إلى الكتاب؛ ينظر إلى هذا الخط ويراه غريبًا مليئًا بالعشوائية، لكن عيونه تبرق عندما يلمس اللحظات الخاطفة الصغيرة التى شكلت الحياة على النحو الذى سارت فيه حتى الآن، كأنه يقرأ فى لوحه المحفوظ بعد تمامه.

"من يصدق أن أصل إلى هنا؟"

تملكنى شعور غريب بأنه سوف يتلاشى من الانفعال عندما راح يحدثنى عن حبه الجامح لفتاة كان يسكن فى بيت أسرتها، عندما كان طالبًا، لكن آباه أجبره أن يتزوج بنت عمه. كان أبوه شيخًا عصبيًا بمجرد تخرجه قال بحسم: "خطبت لك بنت عمك". عرف أنه لا مناص. الأرض لن تخرج من دائرة الأخ وأخيه. الأرض التى شقيت أجيال من أجل صيانتها لن تخرج لغريب. أمام لهجة أبيه وحسمه شعر بحبه مجرد رغوة، شىء هش يتلاشى، والحب الذى ظنه أهم ما فى الحياة غدا خافتًا لا يصح أن ينطق به أمام أبيه. تلك

fb/mashro3pdf

كانت "خطيئته الفادحة" كما قال بالعربية الفصحى. الألم الذى حفر فى قلبه كان عميقًا، ربما شكل بذرة مرضه الذى ظهر بعد أربعين عامًا. لم يستطع أن يتحمل الألم عندما كان يلم "عزاله" من غرفته فى البيت الذى قضى فيه سنوات الدراسة، بعد أن أخبر الفتاة بأنه لن يتمكن من تكسير أمر أبيه، وشعر بجفاف فى الحلق وطنين فى أذنه، وللحظات ظن أنه لن يتمكن من السير حتى محطة باب الحديد.

ظل يحلم بها منذ ذلك اليوم. لم يمض تقريبًا يوم دون أن يحلم بها. يقوم من النوم، وهو يشم رائحة الرطوبة فى غرفة الطلبة. رافقته صورتها ابتداء من أيام عمله مدرسًا للغة العربية فى سوهاج، ثم فى كفر الشيخ، ثم استقراره فى طنطا فى شقة صغيرة، لم تفارقه لمسة يدها وملمس نهدها على صدره وطعم شفتيها.

كان يتحدث بانفعال وحزن كأنه قد نسى تمامًا أننى ابنه وأن بنت عمه التى تزوجها رغمًا عنه هى أمى.

***

fb/mashro3pdf

وجه المدينة الآخر

زادت فى الفترة الأخيرة حوادث السطو وخطف شنط الستات وتثبيت الطلبة العائدين من دروسهم فى الليل، والتحرش بالبنات، وغدا الفضاء الآمن لشوارع المدينة مغمورًا بالحكايات المهددة. لم يكن الأمر جادًا بالنسبة له. كان يمكن تلافى ذلك بالتنبيه على حفيدته أن تسير مع مجموعة من زميلاتها فى طريق العودة، وعلى ابنته بأن تفرغ حقيبتها من أصول أوراقها الشخصية وتستعمل صورًا منها. وتحمل كميات صغيرة من النقود. تعامل مع الأمر كله كما لو أنه "فطر على وجه الحياة"، كما قال يوم الجمعة عندما زاره أحفاده وزوجة ابنه وأخته وأولادها وأصبح البيت صاخبًا مثل أيام زمان. قال إنه مجرد فطر، علينا تقبله: فالحياة لا يمكن أن تكون خيرًا كاملاً ولا شرًا كاملاً.

فى ذلك المساء جلسوا حوله فى شرفة البيت. تفرغ الأولاد للعب فى الجنينة الصغيرة، وفى الطرقة الطويلة التى

fb/mashro3pdf

تقود إلى المدخل الثانى للبيت. حكوا له حكايات أخرى عما يحدث فى شوارع المدينة، فبدا كأنه يستعيد دراسته للحشرات فى كلية العلوم، وراح يقول بأن الحياة على هذا النحو منذ أن خُلقت. ضرب مثلاً بأن الهواء ملىء بالكائنات والذرات الصغيرة التى لا نشاهدها. لو صُور السرير الذى تنام عليه لظهرت لك آلاف الفطريات التى لا تراها. وفرد كفه فى وجوههم قائلاً: هاتوا منظارًا، وسوف ترون كمية غريبة من الكائنات التى تغطى الكف. المشكلة تكمن فى المنظار. لابد أن يكون منظارك طبيعيًا. لو استعملت ميكروسكوبًا وركزت على الحوادث الشاذة سوف ترى الهول وتخرب حياتك. يجب أن نستعمل العين العادية فى النظر حتى لا نرى ما لم نستطع رؤيته.

كانت حياته مصداقا لرأيه، فبعد فترة قصيرة، سُرقت دراجات الأولاد الثلاثة من جنينة البيت. عاش صباحًا متوترًا. كل ما أتعب قلبه، أن غريبًا اخترق الفضاء الشخصى للبيت، دون تردد، أو وجل. فى التاسعة ارتدى حلته الكاملة، مخالفًا رأى زوجته بأنه لا ضرورة لهذا المشوار، فضباط القسم لن يهتموا بأن يعيدوا دراجات الأطفال. لكن الأصول أصول. لابد أن يبلغ عن السرقة. ركب سيارة أجرة من أمام البيت، ودخل القسم بنفس الثقة التى كان يدخل بها مبنى المحافظة عندما كان وكيلاً لوزارة التعليم. كان هناك صخب

fb/mashro3pdf

فى باحة القسم. كانوا يقودون فريقًا من الشباب فى بنطلونات جينز متسخة، وجلابيب، وترنجات ممزقة، إلى عربة ترحيلات زرقاء كبيرة تقف أمام باب القسم. عرّف بنفسه. تذكره المأمور بالكاد، وبالغ فى عبارات الاحترام، واعتذر بأنه مشغول؛ فالمدينة أصبحت تغلى. حوادث لا تنتهى. وطلب منه بأدب، وهو يكز على أسنانه، أن يذهب إلى النبتشية ويعمل محضرًا.

فى طريق العودة عانى من القلق وهو يتطلع بدهشة من نافذة سيارة الأجرة، إلى الزحام عند التقاء شارع البحر بشارع الجلاء، ويشاهد، كأنما لأول مرة، كمية السيارات المحشورة فى الشارع. بدا له كأن شيئًا يحدث، خلف ظهره، بدأ ينتبه إليه الآن. دخل البيت متماسكًا كأنه أدى واجبه، لكن القلق استمر حتى المساء.

بعد ذلك بأسبوع، جاءت ابنته بمجرد خروجها من العمل، لتحكى عن صباح عصيب. صحت اليوم على أصوات عالية أمام الأسانسير، فتحت الباب، لتكتشف أن مقبضه غير موجود. نظرت إلى الشقة المقابلة. كان مقبض الباب مخلوعًا أيضا. انضمت إلى مجموعة من سكان العمارة يقفون على السلم يتبادلون الخبر. عرفت أن مقابض الأبواب فى العمارة المكونة من عشرة طوابق قد سرقت. تجمع الرجال والنساء فى مدخل الباب جماعات صغيرة، تفترق بسرعة للحاق

fb/mashro3pdf

بالعمل، يتبادلون الأخبار بدهشة عن الكيفية التى تسرق بها مقابض عشرين شقة فى ليلة واحدة.

كان أمرًا مثيرًا وموترًا نغص قليلاً الطمأنينة التى يتحدث بها عن الشر الذى لابد منه، خاصة عندما لاحظ وهو فى الطريق للسوق بعد عدة أيام، أن أغطية بالوعات المجارى فى الشارع غير موجودة. مر جوار سور مدرسة البنات. وجد ثلاث بالوعات بدون غطاء. فى شارع السلطان مراد بعد الكنيسة لاحظ أن غطاء البالوعة غير موجود، ووضع الصيدلى فرع شجرة على الفجوة حتى لا تشكل فخًا للسيارات العابرة فى الليل. فى الليل حكى الأمر بدهشة لسمير ابن أخته. قال "سمير" إنهم يسرقون أغطية البالوعات ويسيحونها فى أفران الحدادين. بدا الأمر عجيبًا كأنه حكاية خرافية. حاول التملص من الحس المنغص قائلاً:

لم تعد فى البلد سلطات.

قال سمير:

السلطات موجودة، لكنها مشغولة بأمور أخرى.

الأمر الحاسم فى تلك الأيام كان موت أخته نبيلة.

نزل "سمير" وأبناء عمه فى الفجر لفتح مقبرة العائلة. تركوا السيارة عند جامع عوارة، ودخلوا مشيًا حتى المقابر. هناك قابلوا الحارس. قال لهم إن التربى يسكن فى الكفرة، وأشار إلى كومة من البيوت خلف الزراعات بعد المقابر.

fb/mashro3pdf

نبههم أن يتركوا السيارة مكانها: "على رجليكم يارجالة الله يستركم." لم يفهم "سمير"، لكنه أطاع الحارس. مشوا مسافة حتى الزبالة. فى الطريق صادفوا عددا من الكلاب تحوم على أطراف الكفرة. قابلتهم عربة زبالة يجرها حصان هزيل، وفوقها شاب لم يصل إلى العشرين، وجهه متسخ، وشعره مدهون بدهون تجلعه متصلبًا، معه صبيان أحدهما يدخن شاردًا. خاضوا وسط أكوام الزبالة، حتى بيت الحانوتى. أدرك "سمير" لم طلب منهم الحارس أن يتركوا السيارة. كان الشباب منظرهم غريب، لا حدود لهم. يمكنهم أن يفعلوا أى شىء. كثيرًا ما شاهدهم فى الفجر على عرباتهم يجوبون المدينة يجمعون النفايات مصنفة. زجاجات بلاستيك، ورق مقوى، علب صفيح، بقايا طعام.

كان سمير يحكى لخاله الحكاية فى شرفة البيت بعد الدفن بعدة أيام، ويصف له مشاعره وحسه بالغربة كأن المدينة تقوم على مدينة أخرى، وأن هذه القشرة التى نعيش فيها ما هى إلا قشرة هشة. هناك رسوخ وعدم اهتمام وحس بالضياع كفيل بإحراق الأرض. حياتهم أقوى من تلك الحياة الناعسة التى يعيشها الناس هنا. يومها تركه سمير فى حالة بلبلة، فى حالة صريحة من الخوف، وقد وجدت معادلها الموضوعى. الأمر ليس أمر منظور، بل إن الفطر قد تكاثر، وغطى الكف ويمكن رؤيته بالعين المجردة.

ديسمبر – 2011أكتوبر 2012

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

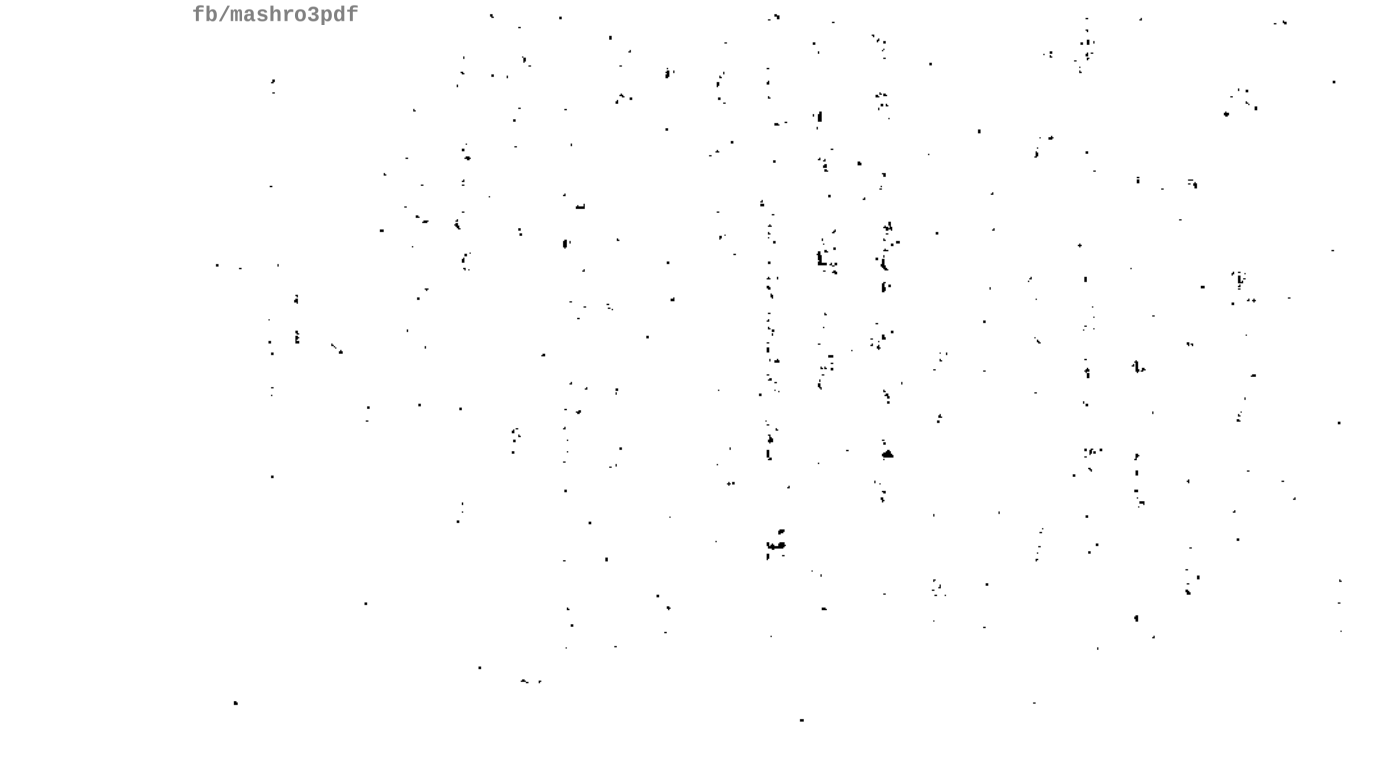

صدر للمؤلف

١ـ هاجس موت: رواية، القاهرة: دار شرقيات، 1995

٢ـ الرجل العارى: رواية، القاهرة: دار شرقيات، 1998

٣ـ حياة مستقرة، رواية: القاهرة: دار شرقيات 2004

٤ـ أيام النوافذ الزرقاء، رواية: القاهرة: دار شرقيات، 2009

٥ ـ ناس وأماكن، سلسلة هوية المكان. الهيئة العامة لقصور الثقافة،2010

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الفهـرس

إهـداء	٥
صورتى	٧
الحـرب	٩
ارتعاش اليد	١٥
معنى الحياة	١٧
نظرة نورا	٢١
المفهـرس	٢٥
الجرح السرى	٢٧
على باب الإدارة	٣٣
شجرة النبع	٣٥
تساقط الشعر	٣٧
درس فى التصوير	٤١
صور المدينة	٤٥
رأس العائلة	٤٧
رائحة البلومونت	٥١
رسمت بخفة	٥٣
رأيت نجيب محفوظ	٥٥

fb/mashro3pdf

الأوانى..... ٦١
لابد أنها ريشة بمامة..... ٦٥
الـراوى..... ٦٧
رواد قهوتى..... ٧١
المعلم راضى..... ٧٣
الســفر..... ٧٥
رأس إنسان..... ٧٩
يوم السبت..... ٨١
شرفة الطيور..... ٨٧
حاجب المحكمة القديمة..... ٨٩
تريــزا..... ٩٧
الفجوة التى تركها وائل..... ١٠١
كائنات ضالة..... ١٠٥
خير من يمثلكم..... ١١١
التذكـر..... ١١٣
وحدة..... ١١٥
حتت من أجساد الناس..... ١١٩
أنت والنجوم..... ١٢١
القطط..... ١٢٣
زهور النرجس..... ١٢٧
حالات القهوة..... ١٣١
حكاية ساحة المحطة..... ١٣٣

fb/mashro3pdf

الفارة..... ١٣٧
روح صدام حسين..... ١٣٩
دفتر الحضور..... ١٤٣
دعامات للذاكرة..... ١٤٥
صالة السنترال..... ١٤٧
انكسرت النظارة..... ١٤٩
أبى..... ١٥٥
وجه المدينة الآخر..... ١٥٩
صدر للمؤلف..... ١٦٥
الفهـــرس..... ١٦٧

fb/mashro3pdf

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

fb/mashro3pdf

سلسلة كتابات جديدة

منذ أن أصدر روايته «هاجس موت»، يعكف عادل عصمت على مشروع سردى يخصه، نستطيع أن نلاحظ أطيافا من الماضى تقتحم شرفة الحاضر القوى فى كتاباته، الأحداث حاضرة بقوة، والشخوص كذلك لاتفارقها الحيرة من تلك الأحداث، وتوالت رواياته بعد ذلك لتاسيس مناخ حكائى فريد، وبدا ذلك فى رواياته«حياة مستقرة» و«الرجل العارى» و«أيام النوافذ الزرقاء»، وهنا فى هذه المجموعة القصصية سنلاحظ أن عادل عصمت يعمل على تكثيف المشهد دون الإخلال بقيمة الإمتاع فى الكتابة، فهو يقيم حيوات فنية تقوم على سرديات واقعية، فمنذ أن يستعرض صورته على شاشة الكمبيوتر، ويتامل شخوصه المتنوعين، ندرك أنه يتقن عملية التامل الفنى بامتياز، ويتجول فى مساحات واقعية بالفعل،مثل مدرسة «سعيد العريان» التى يعمل بها، ودار النشر التى تركها بعد عام واحد لنفوره من صاحبة الدار، وشخصية السياسى الذى ندم على مواجهة جلاده بمنازلته، كما أنه يندهش من أن الناس يمارسون حيواتهم بعد الحرب الكارثية، كما قبلها.
قصص عادل عصمت لا تبتعد كثيرا عن مشروعه السردى الروائى، بل تلتقط مشاهد الحياة من زوايا قريبة جدا.

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٠جنيهات